قال أبو الوليد الباجي:

إذا كنتُ أعلمُ عِلْمًا يقينًا ... بأنَّ جميعَ حياتي كَساعَهْ

فَلِمْ لا أكُونُ ضَنِيْنًا بِها ... وأَجْعَلُها في صلاحٍ وطاعَهْ

«ترتيب المدارك: ٨/ ١٢٥»



ح دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، ١٤٢٥هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العمران، علي بن محمد
المشوق إلى القراءة وطلب العلم./علي بن محمد العمران - مكة المكرمة، ١٤٢٥هـ.
١٤٨ ص، ١٧ × ٢٤ سم
ردمك: ١ - ٢٣ - ٦٤٥ - ٩٩٦٠
١- القراءة أ. العنوان
ديوي ٠٢٨ ١٤٢٥/٥٢٤٠

رقم الإيداع: ١٤٢٥/٥٢٤٠
ردمك: ١ - ٢٣ - ٦٤٥ - ٩٩٦٠

الطبعة الأولى ١٤٢٠
الطبعة الثانية ١٤٢٢
الطبعة الثالثة ١٤٢٥

دار عالم الفوائد
للنشر والتوزيع

مكة المكرمة: ص. ب ٢٩٢٨
هاتف ٥٥٠٥٣٠٥ فاكس ٥٥٤٢٣٠٩

الصف والإخراج دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع



تأليف
علي بن محمد العمران

دار عالم الفوائد
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله، اللهم صلِّ وسلِّم على محمد عبدك ورسولك.

أما بعد؛ فلا أظن قارىء هذا الكتاب قد فرغ من قراءته إلا وهو يردِّد بصدق قول العلامة المقريزي ـ رحمه الله ـ[1]:

وقد أعْرضَتْ نفسي عن اللهوِ جُملةً ... ومَلَّتْ لقاءَ الناسِ حتَّى وإن جلُّوا

وصارَ ـ بحمد الله ـ شُغلي وشاغلي ... فوائد علمٍ لستُ من شُغْلِها أخْلُو

فطورًا يراعي كاتبٌ لفوائدٍ ... بصحَّتِها قد جاءنا العقلُ والنقْلُ

وآونـةً للعلـمِ صـدريَ جـامـعٌ ... فتزكو به نفسي وعن همِّها تسْلُو

وقد لقي الكتاب ـ بحمد الله تعالى ـ في طبعته الأولى قبولا حسنًا، وهذه طبعته الثانية لا تزيد عن الأولى إلا بتصحيح ما لابدّ من تصحيحه من خطأ أو نحوه، وإلا بزيادات قليلة في الصفحات الآتية: (٣٢، ٧٦، ٨٧)، ولم أحب أن أتوسَّع في الزيادات لما اشترطته على نفسي من الاختصار، أسألُ الله ـ تعالى ـ أن ينفع بهذه الطبعة كما نفعَ بسابقتها.

والحمد لله وحده.

وكتب
علي بن محمد العِمران
١٦/ ١/ ١٤٢٢هـ

---

(١) في كتابه: «دُرر العقود الفريدة»: (١/ ٥٠).

بسم الله الرحمن الرحيم

مقَدّمَة الطبعة الأولى

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فهذه رسالة تُجلّي لنا جانبًا مهمًّا من جوانب النموِّ العِلْمي، ورافدًا أساسًا من روافد التوسُّع المعرفي.

تكشف لنا هذه الرسالة عن صورةٍ مُشْرِقةٍ من حياة العلماء، ضربوا فيها أروعَ الأمثلة، وأصدقَ البراهين، وأجلى الدلالات على حبهم للعلم، وشَغَفِهم به، وتفانيهم من أجل تحصيله وطلبه.

هذه الأمثلة والبراهين كثيرة ومتنوِّعة، اصطفيتُ منها مايتعلَّق بحياة العلماء مع الكتب، في اهتمامهم بها قراءةً وإقراءً، في تحصيلهم لها شراءً واستنساخًا، في شغفهم بها، وحرصهم عليها، واصطحابها معهم سَفَرًا وحضرًا، في مواقف عجيبة، وصورٍ مُعْجِبة، ولا عجبَ!!.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وأما عُشَّاق العلم فأعظم شغفًا به وعِشْقًا له من كلِّ عاشقٍ بمعشوقه، وكثيرٌ منهم لا يَشْغَلُه عنه أجملُ صورةٍ من البشر»(١) اهـ.

وقال ـ أيضًا ـ: «ولو صُوِّر العلمُ صورةً؛ لكانت أجملَ من صورة

---

(١) «روضة المحبين»: (ص/٦٩). وانظر فصلاً في «لذة العلم» في «أبجد العلوم»: (١/ ١٠٠) للقنوجي. و«مداواة النفوس» لابن حزم.

الشمس والقمر»[١] اهـ.

أقول: فكيف يُلام إذًا من عَشِقَ العلمَ، وكيف يُتعجَّب ممن كَلِفَ به، وانقطعَ له؟!!.

ـ ١ ـ

غير خافٍ على عامة الناسِ ما للعلم من سُموّ المكانة وشرف المنزلة، وما لحامله من ذلك، ويزداد كلٌّ ذلك تَبَعًا لشرف المعلوم، والتوسع فيه، وظهور أثره على حامله.

ولما كان فضل العلم بهذا الظهور، لم يكن بنا حاجة إلى إقامة البراهين، ونَصْب الأدلة، على الإشادة به، وإظهار محاسنه، فكلٌّ ذلك مجموعٌ في كتب كَثيرة مفردة[٢].

---

(١) المصدر نفسه: (ص/ ٢٠١).

(٢) انظر فصلاً طويلاً حفيلاً في (العلم وفضله وشرفه، وبيان عموم الحاجة إليه، وتوقُّف كمال العبد ونجاته في معاشِه ومعادِه عليه) للإمام ابن قيم الجوزية في كتابه «مفتاح دار السعادة»: (١/ ٢١٩ ـ ٥٥٥، ٢/ ٣ ـ ٣٩٨).
أقول: وفي بيان العلم وفضله مصنفات مفردة منها:
«فضل العلم والعلماء» لحميد بن زياد (٣١٠)، «فرض طلب العلم» للآجري (٣٦٠)، «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبدالبر (٤٦٣)، «الحث على حفظ العلم» للعسكري، وابن عساكر، وابن الجوزي، و«جواهر العِقدين في فضل الشرفين» للسمهودي (٩٠٩)، و«التنبيه والإعلام بفضل العلم والأعلام» للعميري (١١٧٨)، و«تفضيل شرف العلم على شرف النسب» لمحمد سعيد صقر (١١٩٤)،، و«إرشاد الطلاب إلى فضيلة العلم والعمل والآداب» لمحمد بن مانع (١٣٨٥).

- ٢ -

كان الباعث لي على تصنيف هذا الكتاب وتأليفه أمران:

الأول: ما رأيته - ورآه غيري - من عُزُوف كثير من (طلبة العلم!!) - لا سواهم - عن إيلاء كتب العلم مكانتها، وإنزالها منزلتها، فاشتغلوا عنها بغيرها.

* فجماعة منهم ظنوا أنهم قد بلغوا من العلم مالا يُحتاج معه إلى مزيد قراءةٍ واطلاع، فقنعوا بما أحرزوه من ألقاب!! وشهادات!! ومناصب ووجاهة!!.

فما هو إلا أن حاز «اللقب» حتى أعرض عن الطَّلَب، وقد كان يدّعي العكس، يقول: دعوني أضع همَّ «اللقب» ثم أُمْعِن في الطلب! فما باله انقلب!!

ويا ليته وقف هنا فحسب؛ لكنه اتكأ على أريكته وعرَّض الوِساد، وتنمَّر على العباد، وانسلخ من طلب العلم إلى طلب الدنيا، فأصبح «اللقب» حينئذٍ خديعة يخدع بها المرءُ نفسَه وغيره.

ولو كانت الألقاب تؤخذ عن أهليَّةٍ واستحقاق، لهان الخطْبُ وانقطع الخِطاب، لكن العكس هو الواقع، فأصبحتْ أحيانًا تُباع وتُشْترى، وأحيانًا تُعطى لبحوثٍ هزيلة، وأحيانًا لبحوث منقولة عن غيرها، وهكذا في سلسلة نَكِدة من التخاذل العلمي، فهل يوثق بعد هذا بشهادةٍ أو لقب[1]؟!.

---

(١) لكن بعض الصالحين لم يستطع التخلُّصَ من ضغط الواقع في اعتبار هذه (الألقاب السحرية!!) كل شيء، فمع يقينه أنها لا شيء إلا أنه - دائمًا - لا يستطيع أن =

وما أصدق الشاعر محمد رضا الشَّبِيْبي العراقي في قوله:

فتنــةُ النــاسِ ـ وُقِيْنــا الفِتَنــا ـ باطلُ الحَمْدِ ومَكْذوبُ الثَّنا
لم تزلْ ـ ويحكَ يا عصرُ أَفِقْ ـ عَصْــرَ ألقــابٍ كِبــارٍ وكُنَــى
حَكَمَ الناسُ على الناسِ بما سمعوا عنهم وغَضُّوا الأَعْيُنا
فاسْتَحالت ـ وأَنا مِن بعضِهم ـ أُذنــي عَيْنًــا وعينــي أُذُنــا[1]

* وجماعة منهم قنعوا بمتابعة ماتتسارع شركات الحاسوب في إنتاجه، من أقراصٍ تحوي العشرات بل المئات من الكتب في جميع الفنون! وظنوا أنّ هذه تُغني عن شراء الكتب واقتنائها ومطالعتها ودَرْسها! وما عَلِم هؤلاء (أو عَلِموا ولكن...) أنهم قد ٱسْتَسْمنوا ذا وَرَم ونفخوا في غير ضَرَم، فأنزلوا هذه الآلة (الصمّاء)[2] منزلةً ليست لها، ووطّنوها مكانًا ما ينبغي لها، أرادوا بها ـ وهيهات ـ أن يسبقوا الرَّكْبَ، ويُحقِّقوا المسائل، ويستدركوا على العلماء، أرادوا كلَّ ذلك = بِلَمْسةٍ على زِرٍّ! فيالله العجب! وأعجبُ منه: أن ينسبوا كل ذلك الفضل

= يكتب اسمه دون أن يسبقه بـ (اللقب)، وتالله لو وضع قبل اسمه ماشاء من ألقابٍ وشارات لَمَا أغناه ذلك شيئًا! ولكنه اللقب، فمتى سُلِبَ سُلِبَ معه كلُّ شيءٍ.
وبعض هؤلاء يُعبِّر بطريقة أُخرى، فحالما يحصل على شهادة «اللقب» إلا ويسارع بوضعها في مكان بارزٍ في مكتبته محاطة بإطار جميل، ولسان حاله يقول: لله أبي! لقد بلغتُ مرتبة الراسخين!!.

وكم من شهاداتٍ يَغُرُّ جمالُها وقيمَتُها النَّقْش الذي في إطارِها

(١) انظر: «تغريب الألقاب العلمية»: (ص/ ٣٣).
(٢) لا يُفْهَم من هذا أن الحاسوب لا قيمة له ولا فائدة منه، بل له فوائد كثيرة تُقَدَّر بقدرها ولا تعدوا طَوْرَها، ولست هنا لتعديد محاسنه ولا لتبيين مزاياه!!.

إلى أنفسهم (متوَهِّمين ومُوْهِمين)؛ فجَنَوا بذلك على أنفسهم؛ إذ حَسِبوا أنهم على شيءٍ، وعلى العلم، وعلى الناس!!.

الأمر الثاني ـ الداعي إلى تأليف الكتاب ـ: هو استثارة الهِمَم، وشَحْذ الخواطر، وتبصير طلاب العلم بما كان عليه سلفهم من العلماء والأئمة؛ في صبرهم وبذلهم في تحصيل العلم وقراءته وإقرائه.

ولا ٱمْتِراءَ في أثر هذه الأمثلة الحيَّة والصور الصادقة من حياة تلك الصفوة من العلماء، في شَحْذ الهمة وإيقاظها، كما لا تخفى فائدتها في التعرُّف على طرائق أهل العلم في القراءة والمطالعة، والاستبصار بخبراتهم وتجاربهم للوصول إلى طريقةٍ مُثْلى وأسلوبٍ يُحْتَذَى، وليس هذا من التغنِّي بأمجاد الأجداد والركون إليها، ولكنه كشف لصفحة مطويَّة من تاريخنا المجيد، علَّها تُسْهِم في إيقاظ ما فَتَرَ من الهمم، وتُشْعِل ما خبا من العزائم، وقد قال بعضهم: «الحكايات جند من جنود الله يثبِّت بها من شاء من عباده»[1].

ـ ٣ ـ

إن الناظر في سِيَر العلماء يَخْلُص إلى حقائق مهمة ونتائج واضحة، منها: معرفتهم بقيمة هذه الثروة الهائلة[2] والكنوز العظيمة، لذا فقد

---

(١) «أزهار الرياض»: (١/ ٢٢).

(٢) هي هائلة ضخمة بحقٍّ، وانظر فصلاً في بيان ذلك في «التراتيب الإدارية»: (٢/ ٤٥٢ ـ ٤٦٢) للكتاني، و«الفكر السَّامي»: (٢/ ٤٨ ـ ٥١) للحَجْوي، و«لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات»: (ص/ ٣٩ ـ ٤١) للحلوجي، و«الكتاب في الحضارة الإسلامية»: (ص/ ١٦٩ ـ ٢٤٤) ليحيى الجبوري.

أولوها عنايةً فائقةً وجهودًا ضخمة، ظهرت في صورٍ عديدة مما ستكشف هذه الرسالة عن بعضه.

إن من واجبات أهل العلم اليوم: تبصير النشىء بأهمِّية هذا التراث الذي خلَّفه الأجداد، فهو عُصَارة عقولهم لقرونٍ عديدة، وثمرة جمعهم وسهرهم لآماد مديدة.

إن من واجباتهم ـ أيضًا ـ النهوض بهذا التراث، والحِفاظ على هذه الترِكَة التي لا يَقْدُرها قدرَها إلا هم، ولا يستطيع الحفاظَ عليها حقًّا إلا هم.

إن الحفاظ على هذه الثروة لا يكون بمجرَّد رَصْفها في خزائن أنيقة، ولا بترتيبها وتزويقها وتنميقها، ولا بنشرها وتحقيقها، كلا! ليس بذلك فقط؛ لكن خير وسيلة لحفظها، وأنجع طريقة للحفاظ عليها هي: بعث الحركة العلمية وإنمائها، وإيقاظ الهمم وإعلائها، بحيث نضيف كلَّ يومٍ إلى صفوف القراء (والقراء حقًّا) عددًا جديدًا، يعكُفُون عليها ويستجلونَ فوائدَها، فبهذه الطريقة، وبها وَحْدَها، تنمو وتكتمل كلُّ الوسائل المساعدة (من خَزْن ورَصْفٍ ونَشْرٍ...)، وسيسعى طلابُ العلم ورُوَّاد المعرفة حثيثًا تُجاه إنماء كلِّ ذلك بدافعٍ ذاتي واقتناعٍ شخصي؛ لأنهم أصبحوا ساعتئذٍ في أمسِّ الحاجة إليها، ومن أعرف الناس بقيمتها.

فيوم كان العلماء يتنافسون في اقْتِناء الكتب، ويتبارون في تحصيلها واستنساخها، ويعكُفون على قراءتها وإقرائها (مما ستراه في هذه الرسالة) يوم كانوا كذلك؛ نشِطَت حركةُ التأليف والنسخ، بل وجميع ضروب خدمة الكتاب[1].

---

(١) انظر فصلاً في «حال ملوك المسلمين في صيانة كتب السلف» في «خزائن الكتب العربية»: (٣/ ٨٥٥ ـ ٨٥٧) لدي طرَّازي و«فصلاً في استكثار المسلمين =

فإذا أوجدنا القرَّاء وُجِد معهم كلُّ شيءٍ، وإلا فقل لي ـ بربك ـ: ماقيمة كل تلك الوسائل ولا مستفيد ولا راغب ولا طالب!!؟.

ـ ٤ ـ

إنَّ ضعفَ الهمم عن القراءة وطلب العلم كان سببًا رئيسًا في ضياع جزءٍ ليس بالقليل من هذه الثروة، كما كان للجهل، وعدم الوعي بقيمتها، وانتشار الحروب والفتن = آثارٌ أخرى لا يُستهان بها.

وقد أنحى الإمام ابن الجوزي[1] (٥٩٧) ـ رحمه الله ـ باللائمة على ضعف الهِمَّة في اندثار كثير من كتب العلم: قال: «كانت همم القدماء من العلماء عَلِيَّة، تدلُّ عليها تصانيفهم، التي هي زبدة أعمارِهم، إلا أن أكثر تصانيفهم دَثَرت؛ لأن هِمم الطلاب ضعُفت، فصاروا يطلبون المختصرات ولا ينشطون للمطوَّلات، ثم اقتصروا على مايدرسون به من بعضها، فدَثَرت الكتب ولم تُنسخ»[2] اهـ.

فإذا كان هذا هو تعليلُ ابنِ الجوزيِّ في تلك الفترة، وهو يرى أبا الوفاء ابنَ عقيل الحنبلي (٥١٣) صاحب كتاب «الفنون» في (٨٠٠ مجلد)، ويرى ابنَ الخشّاب النحوي (٥٦٧) صاحب التصانيف العديدة

= من نسخ الكتب» فيه ـ أيضًا ـ: (٣/ ٨٩٨ ـ ٨٩٩).

(١) وقبله الإمام ابن جرير الطبري في خبره المشهور في تدوين التفسير والتاريخ. وكذلك الإمام ابن عبدالبر في «جامع بيان العلم»: (١/ ٢١)، قال وهو يتحدّث عن دروس العلم: «وإن كان لعَمْري قد دَرَس منه الكثير بعدم العناية، وقِلَّة الرِّعاية، والاشتغال بالدنيا، والكَلَب عليها» اهـ. ومثلهم الواحدي (٤٦٨) في مقدمة كتابه «الوجيز».

(٢) «صيد الخاطر»: (ص/ ٥٥٦ ـ ٥٥٧).

والمكتبة الضخمة، وأبا العلاء الهَمَذَاني (٥٦٩) العلامة المتفنن، عاشق الكتب، والوزير الصالح العالم ابن هُبَيرة[١] (٥٦٠) صاحب الأيادي البيضاء على العلم والعلماء، وغيرهم، فماذا نقول إذًا في عصرٍ قد اجتمع فيه إلى ضعفِ الهِمَم، وخَوَر العزائم، سَيْلٌ هادر من المُلْهِيات والمشغلات عن القراءة، بل عن العلم جملةً!!.

وسنفقد المزيدَ من هذا التراث إذا نحن انسقنا أمام تلك المُلْهيات، وشغلتنا تلك الصوارف بِبَرِيْقها وبَهْرجها، فيالها من خسارةٍ فادحة وغَبْن عظيم!! فهل يجوزُ لطالبِ علمٍ أن يكون مُعِينًا ـ ولو بأقلِّ القليل ـ على ضياع شيءٍ من هذا التراث؟!.

كلاَّ!!.

ـ ٥ ـ

قسَّمت هذه الرِّسالة إلى فصول:

الأول: في الحثِّ على الازدياد من العلم والتبحُّر فيه.

الثاني: حرص العلماء وشغفهم بالكتب؛ قراءةً وتحصيلاً.

الثالث: في قراءة المطوَّلات في مجالسَ معدودة.

الرابع: في تَكْرار قراءة الكتاب الواحد المرات الكثيرة.

الخامس: في تدريس الكتاب الواحد المرات الكثيرة.

السَّادس: في نَسْخ الكُتُب وما تحمَّلوه في ذلك.

(١) والأربعة حنابلة ـ رحمهم الله تعالى ـ.

السابع: إيقاظاتٌ وتنبيهات.

ونصوص هذه الرسالة لا أعلمها مجموعةً في كتاب، ولا مدوَّنة في مكانٍ واحدٍ، جمعتُها من بطون كتب السِّيَر والتراجم، والتاريخ والطبقات، فضممتُ النظيرَ إلى نظيره، والقصةَ إلى أُختها، بعد طول نظرٍ وفحص، لا أقول هذا تكثُّرًا ولا تزيُّدًا، لكن أقوله تحدُّثًا بالنعمة ودفعًا للظِّنَّة، وليس قصدي استيعاب كل مايمكن أن تنطوي عليه هذه الفصول؛ إذ محاولة ذلك غير مُجْدٍ ولا مطلوب[١].

وأنا غير مُسْتكنفٍ ولا مُسْتكبر عن قبول استدراك أو ملاحظة[٢]، بل صَدْري أرحب لتقبُّل ذلك من ثناء مثنٍ أو مدح مادح!!.

أسألُ اللهَ ـ تعالى ـ أن يُحقِّق ما أَمَّلْته من هذا الكتاب، وأن يتقبل ذلك عنده بقبولٍ حسن، اللهم علِّمنا ماينفعنا، وانفعنا بما عَلَّمتنا، وزِدنا عِلمًا، إنك على كل شيءٍ قدير، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه.

وكتب
علي بن محمد العِمْران
تحريرًا في ٢٠/ ٤/ ١٤٢٠هـ
مكة المكرمة، ص . ب (٢٩٢٨)

---

(١) أما كونه غير مُجْدٍ؛ فلأنَّ استيفاء ذلك يُضاعف حجم الكتاب، فنحتاج حينئذٍ إلى مُشوِّق يُشوّقنا إلى قراءة «المشوِّق»!!.
وأما كونه غير مطلوب؛ فلأن محاولة ذلك ضرب من الخيال، وسوءٌ في التدبير؛ فهل يحيط أحدٌ بكتب التاريخ ومُتعلَّقاته!؟.

(٢) هنا أشكر أخي الأستاذ خالدًا الزهراني؛ إذ زوَّدني ببعض القَصَص والأخبار.

الفصل الأول
في الحثِّ على الازدياد من العلم والتبحُّر فيه

في نزول أوَّل آيةٍ في القرآن، وهي قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ [العلق/ ١] من الدَّلالات والمعاني مالا يمكن حصرُه، ويُفهم من قوله: ﴿ٱقْرَأْ﴾ وهو فعل أمر من (قَرَأ) الأمر الجازم الحازم بالقراءة، والحث على تعلمها وتعليمها[١]، وفي هذه اللفتة غَناء عن كلام كثير في هذا الموضوع.

* أمر النبي ﷺ بالزيادة من العلم

ثم جاءَ الأمرُ القرآني الآخَر؛ لتأكيد القضيّة والحث على طلب المزيد من العلم، فقال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ۝١١٤﴾ [طه/ ١١٤].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وكفى بهذا شرفًا للعلم، أن أمرَ نبيَّه أن يسأله المزيدَ منه»[٢] اهـ.

وقال ابن كثير في «تفسيره»[٣]: «أي: زدني منك علمًا، قال ابنُ عُيينة

---

(١) انظر: «شواهد في الاعجاز القرآني»: (ص/ ٨٤) للأستاذ عودة أبو عودة.
(٢) «مفتاح دار السعادة»: (١/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤).
(٣) (٣/ ١٧٥)، وانظر: «روح المعاني»: (١٦/ ٢٦٩) للآلوسي.

ـ رحمه الله ـ: ولم يزل ﷺ في زيادة حتَّى توفَّاه الله ـ عز وجل ـ» اهـ.

وقد قيل: ما أمرَ اللهُ رسولَه بطلبِ الزيادة في شيءٍ إلا في العلم[١].

* خبر نبيِّ الله موسى ﷺ في طلب الزيادة منه

والعالم كلما ازداد علمًا، ازداد معرفة بفضل العلم ومنزلته ومكانته، وبمقدار ما فاته منه ويفوت = فتاقَت نفسُه ـ حينئذٍ ـ إلى المزيد منه، ولو لقي في ذلك الألاقي.

ففي خبر كليم الله موسى ﷺ الذي قصَّه القرآن الكريم في سورة الكهف الآيات (٦٠ ـ ٨٢)، وذكره النبيُّ ﷺ لأصحابه كما في «الصحيحين»[٢] وفيه أن النبي ﷺ قال: «بينما موسى في ملأٍ من بني إسرائيل إذ جاءه رجل فقال: هل تعلم أحدًا أعلمَ منك؟ قال موسى: لا. فأوحى الله إلى موسى: بلى، عَبْدنا خَضِر[٣]، فسألَ موسى السَّبيلَ إليه...» الحديث.

قال أبو العبَّاس القرطبي[٤]: «وفيه من الفقه: رِحْلة العالِمِ في طلب

---

(١) انظر: «الكشّاف»: (٢/ ٤٤٨)، و«تفسير الخازن»: (٣/ ٢٨٢)، و«فتح الباري»: (١/ ١٧٠)، و«محاسن التأويل»: (١١/ ١٩٧).
فائدة: قال الزمخشري: «هذه الآية متضمِّنة للتواضع لله والشكر له، عندما علم من ترتيب التعلُّم، أي: علمتني ياربِّ لطيفةً في باب التعلُّم وأدبًا جميلاً ماكان عندي، فزِدْني علمًا إلى علم، فإن لك في كلِّ شيءٍ حكمة وعلمًا» اهـ. «الكشاف»: (٢/ ٤٤٨)، وعنه مابعده من التفاسير.

(٢) البخاري رقم (٧٤)، ومسلم رقم (٢٣٨٠) من حديث أُبي بن كعبٍ ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) بفتح أوله وكسر الثاني، أو بكسر أوله وإسكان الثاني، وجهان.

(٤) «المفْهِم»: (٦/ ١٩٦)، وانظر «مفتاح دار السعادة»: (١/ ٤٨٧ ـ ٤٨٨)، ففيه =

الازدياد من العلم، والاستعانة على ذلك بالخادم والصاحِب، واغتنام لقاء الفُضَلاء والعلماء، وإن بَعُدت أقطارُهم، وذلك كان دأب السَّلف الصالح، وبسبب ذلك وصلَ المرتحلون إلى الحظ الراجح، وحصلوا على السَّعي الناجح، فَرَسخت في العلوم لهم أقدامٌ، وصحَّ لهم من الذِّكر والأجر أفضلُ الأقسام» اهـ.

قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»[١]: «وموسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يمنعه بلوغه من السِّيادة المحلّ الأعلى من طلب العلم وركوب البحر لأجله. . . و[فيه ـ أي الحديث ـ]: ركوب البحر في طلب العلم، بل في طلب الاستكثار منه» اهـ.

وذكر الماوردي[٢] عن ابن عباسٍ ـ رضي الله عنهما ـ قال: لو كان أحدٌ يكتفي من العلم لاكتفى منه موسى ـ على نبينا وعليه السلام ـ لمَّا قال: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ ﴾ [الكهف/ ٦٦].

أقول: فهذه حال الأنبياء، والعلماءُ ورثتهم، ولم يَرِثوا منهم إلا العلم، فطلبوه وحصَّلوه وتعبوا في سبيله، فأخذوا بحظ وافرٍ.

* شيءٌ من حال الصحابة في الازدياد منه

لقد لحظَ الصحابةُ ـ رضي الله عنهم ـ ماكان عليه قدوتهم ﷺ من

= كلام نفيس لولا طوله نقلته.

(١) (١/ ٢٠٢، ٢٠٤)، وانظر «عمدة القاري»: (٢/ ٦٤)، و«إكمال المعلم»: (٧/ ٣٦٧).

(٢) في «أدب الدنيا والدين»: (ص/ ١٢٤)، ونَسَبه في «البيان والتبيُّن»: (١/ ٢٥٨) إلى قتادة.

حِرْصٍ على العلم، فاقتفوا أثره، وضربوا أمثلة نادرة في الحرص عليه والتفاني من أجله.

فهذا عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ كان إذا تلى قولَه تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ قال: «اللهم زِدْني عِلْمًا وإيمانًا ويقينًا»[١].

وقد بلغ ـ رضي الله عنه ـ من شدَّة اجتهاده وطلبه أن قال: «والله الذي لا إلـٰه غيره، ما أُنزلت سورةٌ من كتاب الله إلا أنا أعلم أين نزلت، ولا أُنزلت آيةٌ من كتاب الله إلا أنا أعلم فيمن أُنزلت، ولو أعلم أحدًا أعلمَ مني بكتاب الله تبلُغُه الإبل لركبتُ إليه»[٢].

وهذا أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ حافظ الصحابة يصفه ﷺ بالحرص على العلم، فقد عَقَد البخاريُّ في «صحيحه»[٣]: (بابٌ الحرصُ على الحديث) وذكر فيه حديثَ أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ وسؤالَه النبيَّ ﷺ عن أسْعد الناس بشفاعته؟ وقوله له: «لقد ظننتُ يا أبا هريرةَ أن لا يسألني عن هذا الحديثِ أحدٌ أوَّلَ منكَ، لِمَا رأيتُ من حِرْصِكَ على الحديثِ...».

قال البدر العيني في «عمدة القاري»[٤]: «فيه الحرص على العلم والخير، فإن الحريص يبلغ بحرصه إلى البحث عن الغوامض ودقيق المعاني؛ لأن الظواهر يستوي الناسُ في السؤال عنها؛ لاعتراضها

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور، وعَبْد بن حُميد كما في «الدر المنثور»: (٤/ ٥٥٣).
(٢) أخرجه البخاري رقم (٥٠٠٢)، ومسلم رقم (٢٤٦٣).
(٣) «الفتح»: (١/ ٢٣٣).
(٤) (٢/ ١٢٨).

أفكارهم، وما لَطُفَ من المعاني لا يسأل عنها إلا الراسخ فيكون ذلك سببًا للفائدة، ويترتب عليها أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة» اهـ.

وهذا جابر بن عبدالله الأنصاري ـ رضي الله عنهما ـ يرحل من المدينة النبوية إلى مصر ـ مَسِيرة شهر على البعير ـ من أجل سماع حديثٍ واحد، خاف أن يموتَ ولم يَسْمَعْه[1].

وأخرج الدارمي[2] بسندٍ صحيح عن عبدالله بن بريدة: «أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ رحلَ إلى فَضَالَة بن عُبيد وهو بمصر، فقدمَ عليه، فقال: أما إني لم آتِكَ زائرًا، ولكن سمعتُ أنا وأنتَ حديثًا من رسول الله ﷺ رجوتُ أن يكون عندك منه علم...

وعدَّد الحافظ في «الفتح»: (١/ ٢١٠) أمثلة ثم قال: «وتتبُّع ذلك يكثُر».

---

(١) أخرجه أحمد: (٣/ ٤٩٥)، والبخاري في «الأدب المفرد»: (ص/ ٢٨٧)، وعلَّقه مجزومًا به في «الصحيح» (الفتح): (١/ ٢٠٨)، والحاكم: (٢/ ٤٢٧)، والخطيب في «الرحلة»: (ص/ ١٠٩ ـ ١١٤) من طريق عبدالله ابن محمد بن عقيل عن جابرٍ به، وابن عقيلٍ مُتكلَّم فيه من قِبَل حفظه.
وله طريق أخرى عن الحجَّاج بن دينار، عن محمد بن المنكدر، عن جابر به. أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين»: (١/ ١٠٤)، وتمَّام في «الفوائد» رقم (٩٢٨).
قال الحافظ في «الفتح»: (١/ ٢٠٩): «إسناده صحيح».
وله طريق ثالثة عن أبي الجارود العبسي عن جابر. أخرجه الخطيب في «الرحلة»: (ص/ ١١٥)، وضعفه الحافظ في «الفتح».

(٢) «السنن»: (١/ ١٥١)، والخطيب في «الرحلة»: (ص/ ١٢٤ ـ ١٢٥) كلاهما من طريق يزيد بن هارون عن الجُريري به.

وقد ألَّف الخطيبُ كتابه «الرحلة في طلب الحديث» فيمن رحل في طلب حديث واحد.

* شيء مما جاء عن السَّلف

وهكذا كان ذلك الجيل الفريد قدوة لمن بعدهم، في عكوفهم على العلم، وطلبهم للاستزادة منه، فاحتذوا حذوهم، واقتفوا أثرهم، وشواهد ذلك ماثلة:

فهؤلاء تلاميذ ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ في الكوفة ـ علقمة والأسود وغيرهم ـ كانوا إذا سمعوا الحديث والعلم من شيخهم، لم يشف ذلك مافي صدورهم من النهمة، فيرحلون إلى المدينة طَلبًا للعلوِّ، وزيادة في التثبت، وإمعانًا في الطلب والتلقي من أفواه العلماء[١].

قال يحيى بن سعيد القطان[٢]: مارأيتُ أحفظَ منه (أي: سفيان الثوري ١٦١) كنتُ إذا سألته عن مسألةٍ أو عن حديثٍ ليس عنده؛ اشتدَّ عليه.

فلم يقف العلماء في طلبهم عند حدٍّ محدود، بل استوعبوا قدر الاستطاعة والطاقة، فضربوا بذلك أعجبَ الأمثلة، وأغربَ السِّيَر.

قال الأعمش[٣]: كان مجاهد (١٠٤) لا يسمع بأُعجوبة إلا ذهب لينظر إليها! ذهب إلى حَضْرَمَوْت ليرى بئر برهوت، وذهب إلى بابل

---

(١) وانظر نماذج أخرى في كتاب الخطيب السالف، و«سنن الدارمي»: (١/ ١٤٩ ـ ١٥١)، و«فتح الباري»: (١/ ٢٣١ ـ ٢٣٢).
(٢) «تذكرة الحفاظ»: (١/ ٢٠٤).
(٣) المصدر نفسه: (١/ ٦٢).

وعليه والٍ، فقال له مجاهد: تعرض عَلَيَّ هاروت وماروت. . . ؟.

وذكر ابن حَزم[١] عن يحيى بن مجاهد الزاهد قال: كنتُ آخذ من كلِّ علم طَرفًا، فإن سماع الإنسان قومًا يتحدثون وهو لا يدري مايقولون غُمَّة عظيمة، أو كلامًا هذا معناه.

قال أبو محمد (أي ابن حزم): «ولقد صدق ـ رحمه الله ـ».

وهذا الإمام الدارقطني (٣٨٥) ـ رحمه الله ـ وهو من هو تضلُّعًا في علوم الحديث والفقه والقراءات، إلا أنه كان حُفَظَةً للأخبار والنوادر والحكايات.

قال الأزهري[٢]: كان الدارقطني ذكيًّا، إذا ذكر شيئًا من العلم (أيّ نوع كان) وجد عنده منه نصيب وافِر، لقد حدّثني محمد بن طلحة النعالي أنه حضر مع الدارقطني دعوةً، فجرى ذِكْر الأَكَلَة، فاندفعَ الدارقطني يورد نوادر الأَكَلَة حتى قطع أكثر ليلته بذلك.

وقال الإمام محمد بن عبدالباقي الأنصاري (٥٣٥) عن نفسِه[٣]: «حفظتُ القرآن ولي سبع سنين، وما من علمٍ في عالم الله إلا وقد نظرتُ فيه، وحصَّلتُ منه بعضه أو كله».

ولما أُسِر في أيدي الروم قيّدوه، وجعلوا الغل في عنقه، وأرادوا منه أن ينطق بكلمة الكفر فلم يفعل، وتعلَّم منهم الخطَّ الرومي.

---

(١) «رسائل ابن حزم الأندلسي»: (٤/ ٧٢) رسالة مراتب العلوم.
(٢) «تذكرة الحفاظ»: (٣/ ٩٩٣).
(٣) «الذيل على طبقات الحنابلة»: (١/ ١٩٤).

أقول: وما سيرة ابن حزمٍ (٤٥٦)، وشيخ الإسلام ابن تيمية (٧٢٨)، وابن الوزير (٨٤٠) عنَّا ببعيد، وما خلفوه من تراثٍ خَيْر حافظ على ذلك وشهيد.

وخذ مثالاً للدلالة على سَعَة اطلاع شيخ الإسلام، قال الصفديُّ[1] ـ تلميذه ـ: «أخبرني المولى علاء الدين عليُّ بن الآمدي ـ وهو من كبار كُتَّاب الحساب ـ قال: دخلتُ يومًا إليه أنا والشمس النفيس عامل بيت المال ـ ولم يكن في وقته أكتبَ منه ـ فأخذ الشيخ تقي الدين يسأله عن الارتفاع وعما بين الفَذْلكة واستقرار الجملة من الأبواب، وعن الفَذْلكة الثانية وخَصْمها، وعن أعمال الاستحقاق، وعن الخَتْم والتوالي، وما يُطلب من العامل. وهو يجيبُه عن البعض، ويسكت عن البعض، ويسأله عن تعليل ذلك؟ إلى أن أوضح له ذلك وعلَّله، قال: فلمَّا خرجنا من عنده قال لي النفيس: والله تعلَّمتُ اليومَ منه مالا كنت أتعلمه. انتهى ماذكره علاءُ الدين».

واستمع إلى هذا الوصف العجيب، الذي يُوْقِفُك على سَعَة اطلاع شيخ الإسلام، ذكر السخاوي في «الجواهر والدرر»[2] عن القاضي شمس الدين بن الديري يقول: «سمعتُ الشيخَ علاء الدين البسطامي ـ ببيت المقدس ـ يقول وقد سأله: هل رأيت الشيخ تقيَّ الدين ابن تيميَّة؛ فقال: نعم. قلتُ: كيف كانت صِفَتُه؟ فقال:

هل رأيتَ قُبَّةَ الصَّخْرة؟ قلت: نعم. قال: كان كقُبَّة الصخرة مُلأ كتبًا لها لسان ينطق!!» اهـ.

---

(١) في «الوافي» انظر: «الجامع لسيرة شيخ الإسلام»: (ص/ ٣١٠).
(٢) (١/ ١١٧).

ولا ريبَ أن هذا التنوع المعرفي لم يتأتَّ من فراغ وبطاله؛ ولكنه جُمِع بطول السَّهر، واغتنام العمر، ومنادمة الكتاب والاستِغناء به عن الصّحاب والأحباب.

* علماء يعرفون علومًا لا يعرفها أهل عصرهم

وإن تَعْجَب فَعَجَبٌ ما وجدته في تراجم بعض العلماء، وما ذُكر من سَعَة اطلاعهم وتنوُّع معارفهم، بل تصريح جماعةٍ منهم بمعرفتهم لعلومٍ لا يعرفها أهلُ عصرهم، بل لا يعرفون أسماءها!! وإليك ماوجدت:

١ ـ كان ابن الخشَّاب النحوي الحنبلي ت (٥٦٧) يقول: إني متقنٌ في ثمانية علوم، مايسألني أحدٌ عن علم منها، ولا أجد لها أهلاً!![١].

٢ ـ وكان أبو البقاء السُّبْكي ت (٧٧٧) يقول: أعرف عشرين علمًا، لم يسألني عنها بالقاهرة أحد[٢]!!.

٣ ـ وقال محمد بن أبي بكر بن جَمَاعة ت (٨١٩): أعرف خمسة عشر علمًا، لا يعرف علماء عصري أسماءها!![٣].

٤ ـ ويُروى أن محمد بن أحمد بن عثمان بن عليم المالكي ت (٨٤٢) قال: أعرف عشرين علمًا ماسُئِلْتُ عن مسألةٍ منها!![٤].

٥ ـ وكان أحمد بُو نافع الفاسي ت (١٢٦٠) يقول: عندي أربعة

---

(١) «الذيل على طبقات الحنابلة»: (١/ ٣١٧).
(٢) «درَّة الحِجال»: (٢/ ١٣٢).
(٣) «البدر الطالع»: (٢/ ١٤٨).
(٤) «البدر الطالع»: (٢/ ١١٣)، وكان مع هذا ربما احتاج فيبيع بعض نفائس كتبه!.

وعشرون علمًا، لم يسألني عنها أحدٌ!![١].

٦ ـ وفي ترجمة أبي الطيب عبدالمنعم الكندي ت (٤٣٥)، حكي بعضُهم أنَّه دخلَ عليه؛ فوجَدَه ينظر في اثني عشر علمًا، وكان له حظٌّ من الحسابِ والهندسةِ والعلوم القديمةِ[٢].

٧ ـ وانظر ماذكره الجبرتي المؤرِّخ[٣] عن والده العلامة حسن الجبرتي الكبير ت (١١٨٨) من تفنُّنه في علوم الشرع، ثم اعتكافه عشر سنوات (١١٤٤ ـ ١١٥٤) لدراسة (العلوم التجريبية) من الهندسة والكيمياء والفلك والصنائع الحضارية كلِّها؛ حتى النِّجارة والخِراطة والحِدادة والسَّمْكرة والتجليد والنقش والموازين، حتى صار بيته زاخِرًا بكلِّ أداةٍ في صناعةٍ وكلِّ آلةٍ. . .

فتزوَّد من العلم والْحَق بالرَّكب.

قال الماوردي في «أدب الدنيا والدين»[٤] ـ وهو يرشد الطالب ـ: «ولا يَقْنَع من العلم بما أدرك؛ لأن القناعة فيه زهدٌ، والزُّهد فيه تركٌ،

---

(١) «فهرس الفهارس»: (١/ ١٢٤).

(٢) «ترتيب المدارك»: (٨/ ٦٧). و«معالم الإيمان»: (٣/ ١٨٤).

(٣) «تاريخ الجبرتي»: (١/ ٣٩٧)، وانظر: «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا»: (ص/ ٨٢ ـ ٨٥) للعلامة محمود شاكر ـ رحمه الله ـ وهو مهم.
وذكر أبو المواهب الحنبلي في «مشيخته»: (ص/ ٨٩) في ترجمة شيخه أيوب ابن أحمد الحنفي الخلوتي ت (١٠٧١) أنه كان يقول: أعرف ثمانين عِلْمًا!!.
أقول: الظاهر أن هذه (الثمانين) من علوم أهل التصوُّف (العلوم الباطنة) التي هي عَيْن الجهل بالله وشرعه!!.

(٤) (ص/ ١٢٥).

والتركُ له جهلٌ!.

وقد قال بعض الحكماء: عليكَ بالعلمِ والإكثار منه؛ فإن قليلَه أشبه شيءٍ بقليل الخير، وكثيره أشبه شيءٍ بكثيره، ولن يعيب الخير إلا القِلّة، فأمّا كثرتُه فإنها أُمنِية» اهـ.

ومن فوائد الاستمرار في طلبه ودوام التزيد منه ماذكره ابن الجوزي في «صيد الخاطر»[1] قال: «أفضل الأشياء التزيّد من العلم، فإنه من اقتصرَ على مايعلمه فظنّه كافيًا اسْتَبَدَّ بِرأْيه، وصار تعظيمه لنفسه مانعًا من الاستفادة. والمذاكرة تبيِّن له خطأه...».

* * *

(١) (ص/ ١٥٨).

وأنشد بعضهم في طلب الاستزادة من العلم، وعدم الاقتصار على فنٍّ:

احرص على كلِّ علمٍ تبلغ الأملا ... ولا تواصل لعلمٍ واحدٍ كسلا

النحلُ لما رَعَتْ من كلِّ فاكهةٍ ... أبدت لنا الجوهرين: الشمعَ والعَسَلاَ

الشمعُ بالليل نورٌ يُسْتضاءُ به ... والشهدُ يُبري بإذن البارىءِ العِلَلاَ

من «درة الحِجال»: (٣/ ٤٩).

الاستزادة من العلم... حتى في ساعة الاحتضار

ساعة الاحتضار لا يمكن لأحدٍ أن يصفَ حقيقتها أو يصلَ إلى كُنْهها، لكن الكلُّ يعلم أنها ساعة رهيبة ولحظة مُذهِلة، إنها ساعة الانتقال والتحول من الدنيا إلى الآخرة، من الحياة إلى الموت، هل هناك ساعة في الدنيا أرهب من هذه؟! هل هناك ساعة في الدنيا أشد حرجًا وأكثر شغلاً منها؟! كلا.

فما بالك بأناسٍ في هذه (الساعة وفي هذه اللحظة) يتذاكرون العلم، ويقيدون الفوائد، ويحرصون على ذلك كلِّه، كأقوى ما يكونون صِحَّةً، وكأشدِّ ما يكونون نَشَاطًا!! نعم هذا مما حفظه لنا التاريخ وسطرته الكتب، فثبت وصحَّ ليبقى عِبْرة وعِظة للخالِفِ، وحاديًا يتعلل به الطالب.

وسرُّ قدرتهم على ذلك، شِدَّة النَّهَمة، وسموّ الهمة.

قال العلامة ابن الجوزي[١]:

لي همةٌ في العِلْم ما إن مثلُها ... وهي التي جَنَتِ النُّحُولُ هي التي
خُلِقت من العِلْق العظيمِ إلى المُنَى ... دُعِيت إلى نَيْل الكمالِ فَلبَّتِ

وهذا مصداق خبر النبيِّ ﷺ: «مَنْهُومانِ لا يَشْبَعَانِ؛ طالبُ عِلْمٍ

(١) انظر: «ذيل الروضتين»: (ص/ ٢٥)، و«السير»: (٢١/ ٣٧٩)، في قصيدة له.

وطالبُ دُنْيا»[١].

ولما سُئِل الإمام أحمد: إلى متى تطلب العلم؟ قال: من المحبرة إلى المقبرة.

فإليك ما وجدنا من خبرهم في ذلك:

---

(١) هذا الحديث جاء من رواية جماعةٍ من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وهم: أنس، وابن عباسٍ مرفوعًا وموقوفًا، وابن مسعود، وعائشة، وأبو سعيد الخدري، وابن عمر. وجاء ـ أيضًا ـ من مرسل الحسن، وموقوفًا على كعب الأحبار.
أحسنها من رواية أنسٍ وابن عباس، فالأول أخرجه الحاكم: (١/ ٩٢)، والبيهقي في «الشعب» و«المدخل» ـ كما في «المقاصد: ٤٣٤» ـ وابن عساكر في «تاريخه»: (مخطوط) من طريق أبي عوانة، عن قتادة، عن أنسٍ به.
قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ولم أجد له علة» ووافقه الذهبي.
وحديث ابن عباس أخرجه إسحاق بن راهويه في «مسنده» ـ كما في «المطالب العالية»: (٣/ ٣٢١) ـ وأبو خيثمة في «العلم» رقم (١٤١)، والبزار (الكشف: ١/ ٩٥)، والطبراني في «الكبير»: (١١/ ٧٦ ـ ٧٧) رقم (١١٠٩٥)، و«الأوسط»: (٦/ ٣١٣)، وأحمد في «الزهد»: (ص/ ٢١٥)، والعسكري في «الحث على حفظ العلم»: كما في «المقاصد»، وابن الجوزي في «العلل»: (١/ ٩٤).
كلهم من طريق ليث بن أبي سُلَيم عن مجاهد (في الزهد، وعلل ابن الجوزي: عن طاووس، وفي البزار: على الشك عن طاووس أو مجاهد) عن ابن عباس ـ وأحسبه قد رفعه ـ عن النبي ﷺ بنحوه.
وفيه ليث بن أبي سليم ضعيف الحديث، وبه أعلَّه الهيثمي في «المجمع»: (١/ ١٤٠) والحافظ في «المطالب»: (٣/ ٣٢١).
وأخرجه الدارمي: (١/ ١٠٨) من طريق إسماعيل بن أبان عن عبدالله بن إدريس عن ليث عن طاووس عن ابن عباسٍ موقوفًا.

* خبر أبي يوسف القاضي (١٨٢)

ذكر القرشي في «الجواهر المُضِيَّة»[١]، والمولى تقي الدين التميمي في «الطبقات السنية»[٢] في ترجمة إبراهيم بن الجراح التميمي مولاهم ـ تلميذ أبي يوسف وآخر من روى عنه ـ قال: «أتيته أعوده، فوجدته مغمًى عليه، فلما أفاق قال لي: يا إبراهيم! أيُّهما أفضل في رمي الجمار، أن يَرْميَها الرجلُ راجلاً أو راكبًا؟

فقلت: راكبًا. فقال: أخطأتَ!.

قلتُ: ماشيًا. قال: أخطأتَ!.

قلت: قل فيها ـ يرضى الله عنك ـ.

قال: أما ما يوقف عنده للدعاء، فالأفضل أن يرميه راجلاً، وأما ما كان لا يوقَف عنده، فالأفضل أن يرميه راكبًا[٣].

ثم قمت من عنده، فما بلغتُ بابَ داره حتى سمعتُ الصُّرَاخَ عليه، وإذا هو قد مات ـ رحمه الله تعالى ـ».

* خبر أبي زُرْعة الرازي (٢٦٦)

قال ابنُ أبي حاتم في «تقدمة الجرح والتعديل»[٤]: سمعتُ أبي

---

(١) (١/٧٦).
(٢) (١/ ١٩٠ ـ ١٩١) ولم يرد فيه جوابه الثاني: «قلت: ماشيًا...».
(٣) انظر «المجموع»: (٨/١٦٨)، و«أضواء البيان»: (٥/٣٠٨) وقال: «وأظهر الأقوال في المسألة هو الاقتداء بالنبي ﷺ، وهو قد رمى جمرة العقبة راكبًا، ورمى أيام التشريق ماشيًا ذهابًا وإيابًا والله تعالى أعلم» اهـ.
(٤) (ص/ ٣٤٥).

يقول: مات أبو زُرعة مطعونًا مبطونًا يعرق جبينُه في النزع، فقلت لمحمد بن مسلم (ابن وَارَة): ماتحفظ في تلقين الموتى: لا إلـه إلا الله؟ فقال محمد بن مسلم: يروى عن معاذ بن جبل.

فمن قبلِ أن يَسْتتم رفع أبو زرعة رأسه وهو في النزع، فقال: روى عبدالحميد بن جعفر، عن صالح بن أبي عريب، عن كثير بن مرَّة، عن معاذ عن النبي ﷺ: «من كان آخر كلامه: لا إلـه إلا الله دخلَ الجنة».

فصار البيت ضجَّة ببكاءِ من حضرَ.

* خبر أبي حاتم الرازي (٢٧٧)

قال ابنه عبدالرحمن في «تقدمة الجرح والتعديل»[(١)]: «حضرتُ أبي ـ رحمه الله ـ وكان في النزع وأنا لا أعلم، فسألته عن عُقبة بن عبدالغافر، يروي عن النبي ﷺ، له صحبة؟ فقال برأسه: لا، فلم أقنع منه، فقلتُ: فهمتَ عني؟ له صحبة؟ قال: هو تابعي.

قلت (ابن أبي حاتم): فكان سيد عمله معرفة الحديث، وناقِلَة الأخبار، فكان في عمره يُقتبَس منه ذلك، فأراد الله أن يُظهر عند وفاته ما كان عليه في حياته» اهـ.

* خبر ابن جرير الطبري (٣١٠)

قال المعافى النَّهْرَواني في «الجليس الصالح»[(٢)]: «وحكى لي بعض بني الفرات، عن رجلٍ منهم أو من غيرهم: أنه كان بحضرة أبي جعفر

---

(١) (ص/ ٣٦٧).
(٢) (٣/ ٢٢٢).

الطبري ـ رحمه الله ـ قبل موته، وتوفي بعد ساعة أو أقلّ منها، فذُكِرَ له هذا الدعاء[١]، عن جعفر بن محمد ـ عليهما السلام ـ فاستدعى محبرة وصحيفةً فكتبها، فقيل له: أفي هذه الحال؟! فقال: ينبغي للإنسان أن لا يدع اقتباس العلمِ حتى يموت» اهـ.

* خبر ابن سعدون (٣٥٢)

ذكر القاضي عِياض في «ترتيب المدارك»[٢] في ترجمة أبي بكر محمد بن وسيم بن سعدون الطُّليطلي أنه كان رأسًا في كلِّ فن، مُتقدِّمًا فيه... قال: «ودَخَل عليه ـ وهو في النزع ـ بعضُ أصحابه، فناداه، فلم يُجِبْه، فقال الآخر: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ/ ٥٤].

فقال له أبو بكر حين ذلك: نزلت في الكفار، وفيها: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾﴾[٣].

* خبر مسرَّة الحضرمي (٣٧٣)

وذكر عياضٌ في «المدارك»[٤] ـ أيضًا ـ في ترجمة مسرَّة بن مسلم الحَضْرمي ت (٣٧٣) ـ وكان من أهل العلم والزهد التام ـ أنه لما احْتُضِرَ ابتدأ القرآن، فانتهى في (سورة طه) إلى قوله تعالى: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾ [طه/ ٨٤]، ففاضت نفسُه.

---

(١) وهو قوله: «يا سابق الفوت، ويا سامع الصوت، ويا كاسي العظام لحمًا بعد الموت...» ثم يدعو بمسألته.

(٢) (٦/ ١٧٦).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير»: (٣/ ٥٥٢ ـ ٥٥٤).

(٤) (٦/ ٢٧١).

* خبر البَيْرُوني[١] الفَلَكِي (٤٤٠)

ذكر ياقوت في «إرشاد الأريب»[٢] في ترجمة أبي الريحان محمد ابن أحمد الخُوَارَزْمي ما كان عليه من حرصٍ في تحصيل العلوم، وتصنيف الكتب، ثم ذكر له الفقيه الوَلْوَالجيّ قال: دخلتُ على أبي الرّيحان وهو يجود بنفسه، وقد حَشْرج نفسُه، وضاقَ به صدرُه، فقال لي في تلك الحالة: كيف قلت لي يومًا حساب الجدّات الفاسدَة[٣]؟ فقلت له ـ إشفاقًا عليه ـ: أفي هذه الحالةِ؟! قال لي: ياهذا! أُوَدِّعُ الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة ألا يكون خيرًا من أن أُخلِّيها وأنا جاهلٌ بها. فأعدتُ ذلك عليه وحَفِظَ... وخرجتُ من عِنْده، وأنا في الطريق، فسمعتُ الصُّرَاخ» اهـ.

* خبر ابن روزْبَه (٦٣٣)

وفي ترجمة المُسْنِد أحمد بن عبدالله بن معطي الجزائري ت (٦٦٦) في «ذيل التقييد»[٤] للفاسي أنه سَمِعَ «صحيح البخاري» عَلَى عليٍّ بن أبي بكر بن رُوْزبة في أربعة عشر مجلسًا، وأنه قال لهم يوم الخَتْم: اجتهدوا في إكمال هذا الكتاب، فإنه ـ والله ـ مابقي غيركم يسمعه عليَّ، وتوفي في الليلة المتصلةِ بذلك اليوم.

---

(١) قال ياقوت: (١٧/ ١٨٠): «هذه النسبة معناها: البرّاني؛ لأن بيرُن بالفارسية معناه برّا...» اهـ.

(٢) (١٧/ ١٨٢).

(٣) يعني: الجدّات من قِبَل الأُم.

(٤) (٢/ ٦٨).

* خبر ابن مالك صاحب الألفية (٦٧٢)

وفي كتاب «الفَلَاكة والمفلوكون»[١] للدَّلَجي في ترجمة الإمام أبي عبدالله جمال الدين محمد بن عبدالله بن مالك النحوي العلامة، قال: «كان كثير الإشْغَال[٢] والاشتغال، حتى أنه حفظ في اليوم الذي مات فيه خمسة شواهد!!».

* خبر الصفي الهندي (٧١٥)

ذكر الذهبي في «معجم شيوخه»[٣] في ترجمته أنه روى له حديثين قال: «ليسا هما عندي، قرأتهما عليه ونَفَسُه يُحشرج في الصدر، فتوفي يومئذٍ عفا الله عنا وعنه آمين» اهـ.

* خبر الحجَّار (٧٣٠)

وهذا المعمّر الأعجوبة، شهاب الدين أبو العبَّاس أحمد بن أبي طالب الحجَّار، مُسْند الدنيا[٤] ت (٧٣٠)؛ فقد ذكر الفاسيُّ أن الطلاب قد قرءوا عليه في يومِ موته، وله مئة سنة وعشر سنين تقريبًا!!.

أقول: فاتعظ بهذه الهِمم العَلِيَّة، وٱبْكِ على تقصيرك ودُنُوِّ هِمَّتك، واستدرك ما فرط من أمرك بالجدِّ والعمل، ومداومة الدرس والنظر، فمن سار على الدرب وصل، وعند الصباح يَحْمَد القومُ السُّرَىٰ.

---

(١) (ص/ ٦٩).
(٢) أي: التدريس.
(٣) (٢/ ٢١٦).
(٤) هكذا حلَّاه الحافظ تقيُّ الدين الفاسي في «ذيل التقييد»: (٢/ ٥٨ ـ ٦١) والخبر فيه.

وقريب من هذا ما جاء في سِيَر بعض العلماء؛ فهم مع شدة تطلُّبهم للعلم من بادِىء أمرهم حتى أوفوا فيه إلى الغاية، فاستكثروا ما شاءوا، ومع تقدُّم أعمارِهم ودنوِّ آجالهم هم مع ذلك = يَجِدون من الرغبة في العلم، والشغف به، أكثر مما يجده الشَّاب اليافِع المُمْتلىء قَوَّةً ونشاطًا!!.

* خبر ابن عقيل الحنبلي (٥١٣)

ففي ترجمة[١] أبي الوفاء ابن عقيل الحنبلي ت (٥١٣) ـ رحمه الله ـ أنه قال: «إني لأجد من حِرْصي على العلم، وأنا في عَشْرِ الثمانين أشد مما كنت أجده وأنا ابنُ عشرين سنة».

* خبر ابن الجوزي (٥٩٧)

وهذا العلامة المتفنِّن، صاحب التصانيف، أبو الفرج ابن الجوزي (٥٦٧) يقرأ في آخر عمره وهو في (الثمانين) القراءات العشر على ابن الباقلاني، مع ابنه يوسف[٢].

قال الذهبي ـ معلِّقًا ـ: «فانظر إلى هذه الهمة العالية!» اهـ.

* خبر مرتضى الزبيدي (١٢٠٥)

قال العلامة عبدالحي الكَتَّاني في «فهرس الفهارس والأثبات»[٣] في

---

(١) في «الذيل على طبقات الحنابلة»: (١/ ١٤٦).
(٢) «السير»: (٢١/ ٣٧٧). وابن الباقلاني هو: عبدالله بن منصور بن عمران أبو بكر الرَّبَعي الواسطي المقرىء ت (٥٩٣)، انظر «معرفة القراء»: (٢/ ٨٧٠ رقم ٨٢٧).
(٣) (١/ ٥٣٦ ـ ٥٣٧).

ترجمة العلامة اللغوي المحدِّث محمد مرتضَى الزَّبيدي: «ومع كثرة شيوخ المترجَم كثرةً مَهُوْلَةً بالنسبة إلى مشايخه ومُعَاصِريه = كان غير مُكْتَفٍ بما عنده، بل دائم التطلّب والأخذ، ومكاتبة من بالآفاق، حتى أني رأيتُ بخطِّه في كناشة ابن عبدالسلام الناصري استدعاءً كتبَه لمن يلقاه ابنُ عبدالسلام المذكور (وذكر نصَّه، وفيه: استجازة كل من يلقاه من الشيوخ والعلماء بتاريخ ١١٩٧).

قال (الكتاني): وإن تعجب فاعجب لهذه الهمة والحِرص من هذا الحافظ العظيم الشأن، وعدم شَبَعه، وكثرة نَهَمِه، فإنه عاش بعدما كتب هذا الاستدعاء نحو الثمان سنوات.

وهذا نظيرُ ما وجدته من كَتْب اسم الحافظ ابن الأبّار (٦٥٨) في استدعاءٍ مؤرَّخ بقريب من سنةِ وفاته! ومنهومان لا يشبعان: طالب علمٍ وطالب دنيا». انتهى كلام الكتاني.

أقول: ولئن عدَّ الذهبيُّ والكتانيُّ ما وقع لهؤلاء العلماء من النهمة الشديدة، والحرص العظيم، والهِمَّة العالية = فَلَعَمْري إن طلبه، والحرص عليه، والمذاكرة به في ساعة الاحتضار، ووقتِ النزْعِ لأعظم دلالة من ذلك وأوضح.

فلله تلك الهمم والعزائم!!.

* * *

الفصل الثاني
حِرْص العلماء وشغفهم بالكتب؛ قراءةً وتحصيلاً

لقد أبدأ العلماء وأعادوا في بيان قيمة كتب العلم، وعظيم أَثرها، وجلالة موقعها، ولهم في ذلك عبارات مشهورة نثرًا وشعرًا، نجد كثيرًا منها في مقدمة كتاب «الحيوان»[١] للجاحظ، وفي ثنايا كتبه، وفي «تقييد العلم»، و«الجامع . . .» للخطيب، و«جامع بيان العلم وفضله» لابن عبدالبر، وفي مطاوي كتب «أدب الطلب» وكتب «التراجم والسير». ومقدِّمات المصنفات التي تتحدث عن (خزائن الكتب)[٢] فلا نُعيد ما قالوه، فهو مبتذلٌ في مظانِّه؛ إلا أني لم أشأْ إخلاء هذا الكتاب من لُمَعٍ منه (وهو مَظِنَّة ذلك)، فاخترتُ بضع كلماتٍ أُراها من أحسنِ ما قيل:

قال الجاحظ (٢٥٥) في «الحيوان»[٣]: «من لم تكن نفقته التي تخرج في الكتب ألذّ عنده من إنفاق عُشَّاق القِيان، والمُسْتهترين[٤] بالبنيان، لم يبلغ في العلم مبلغًا رضيًّا، وليس ينتفع بانفاقه حتى يُؤْثر اتخاذ الكتب إيثار الأعرابيِّ فرسَه باللبن على عِياله، وحتى يُؤمِّل في

(١) وقد أُفْرِدت هذه المقدمة عن الكتاب من قديم، منها نسخة قديمة بخط ابن البواب، وأخرى بخط الصفدي (٧٦٤) وعُنْوِن لها بعناوين مختلفة، وأُفْرِدت حديثًا وطُبِعَت.

(٢) مثل كتاب فيليب دي طرّازي، وكوركيس عوّاد، وغيرها.

(٣) (١/ ٥٥).

(٤) المُسْتَهْتِر: المولَع بالشيءِ المنهمك فيه.

العلم ما يؤمِّل الأعرابيُّ في فرسِه».

وذكر الإمام أبو محمد بن حزم (٤٥٦) في «رسالة مراتب العلوم»[١] دَعَائِمَ العلم، فعدَّ منها «الاستكثارُ من الكتب، فلن يخلوَ كتابٌ من فائدة[٢] وزيادة علمٍ يجدُها فيه إذا احتاجَ إليه، ولا سبيل إلى حفظ المرء لجميع علمِه الذي يختصّ به؛ فإذ لا سبيل إلى ذلك، فالكتب نِعْم الخِزانة له إذا طُلِب.

ولولا الكتب لضاعت العلوم ولم توجَد، وهذا خطأٌ ممن ذمَّ الاكثار منها، ولو أُخِذَ برأيه، لتَلِفَت العلوم، ولجاذبهم الجهّال فيها، وادَّعوا ما شاءوا!! فلولا شهادة الكتب لاستوت دعوى العالم والجاهل» اهـ.

وعُذِلَ بعضُ العلماء في كثرة شراء الكتب، فقال[٣]:

وقائلةٍ أنفقتَ في الكُتْبِ ما حَوَت ... يمينُك من مالٍ فقلتُ: دعيني[٤]
لعلِّي أرىٰ فيها كتابًا يَدُلُّني ... لأخْذِ كتابي آمِنًا بيميني

وفي كلِّ ما سيأتي من الأخبار والقصص لسانٌ ناطق، وبيانٌ مُشرق،

---

(١) ضمن «رسائل ابن حزم»: (٤/ ٧٧).
(٢) وهذه القاعدة (لن يخلو كتابٌ من فائدة) ذكرها ابن الجوزي ـ أيضًا ـ في «صيد الخاطر»: (ص/ ٤١١) وهو يُرشد الطالب قال «وليجتهد في مجالسة العلماء... وتحصيل الكتب، فلا يخلو كتابٌ من فائدة» اهـ. وانظر فلسفة عباس العقَّاد لهذه القاعدة في كتابه «أنا»: (ص/ ٨٩) وهو ترجمته لنفسه، جُمِع بعد موته. وذكرها وفصل القول فيها الأستاذ محمود الطناحي في «الموجز»: (ص/ ٢٤ـ ٣٥) وهو مهم.
(٣) هو سلمان بن عبدالحميد ابن الحموي الحنبلي (ت ٨٠٥) من شيوخ الحافظ ابن حجر، ذكره في «المجمع»: (١/ ٦٠١)، و«السحب الوابلة»: (٢/ ٤٠٦)، و«الجوهر المنضد» رقم ٥٣.
(٤) وقع في «الجوهر»، وحاشية السحب: «وعيني»! وهو تحريف.

لقيمة الكتب ومكانتها في نفوس هؤلاءِ العلماء، وهي بذلك غنيّة عن أيِّ تعليق.

* ولع ابن دُرَيْد (٣٢١) بالعلم والكتب

قال أبو نصر الميكالي[١]: تذاكرنا المنتزهات يومًا وابن دُرَيْد حاضر، فقال بعضُهم: أنزه الأماكن غُوطة دمشق. وقال آخرون: بل نهر الأُبلَّة. وقال آخرون: بل سُغْد سمرقند. وقال بعضُهم: نهروان بغداد. وقال بعضُهم: شِعب بوّان. وقال بعضُهم: نوبهار بلخ.

فقال (أي ابن دريد): هذه منتزهات العيون فأين أنتم عن متنزَّهات القلوب؟ قلنا: وما هي يا أبا بكر؟ قال: «عيون الأخبار» للقتبي، و«الزهرة» لابن داود، و«قلق المشتاق» لابن أبي طاهر. ثم أنشأ يقول:

ومَن تكُ نزهتَهُ قينةٌ وكأسٌ تحثُّ وكأس تُصَبْ

فنزهتُنا واستراحَتُنا تلاقي العيون ودَرْس الكتبْ

* ولع شيخ الإسلام ابن تيمية (٧٢٨) بالمطالعة، وشغفه بالبحث

قال الحافظ ابن عبدالهادي (٧٤٤) ـ تلميذه ـ في «مختصر طبقات علماء الحديث»[٢] ـ وذكر طرفًا من صفاته ـ: «لا تكاد نفسُه تشبع من العلم، ولا تروى من المطالعة، ولا تملُّ من الاشتغال، ولا تكلُّ من البحث، وقَلَّ أن يدخل في علمٍ من العلوم في بابٍ من أبوابه إلا ويُفتح له

---

(١) «إرشاد الأريب»: (١٨/ ١٣٩) لياقوت.

(٢) (٤/ ٢٨٢)، وانظر «العقود الدريَّة»: (ص/ ٥) له، ونقل فيه هذا القول وأتمّ منه عن بعض قدماء أصحاب الشيخ.

من ذلك الباب أبواب، ويستدرك أشياء في ذلك العلم على حُذَّاق أهله».

وقال الشيخ محمد خليل الهراس[١]: «كان لابن تيمية بصر نافذ ونفس طُلَعَة لاتكاد تشبع من العلم، ولا تكل من البحث، ولا تروى من المطالعة، مع التوفر على ذلك وقطع النفس له وصرف الهمة نحوه، حتى إنه لم ينقطع عن البحث والتأليف طيلة حياته في الشام أو في مصر، في السجن أو في البيت، بل إنه كان يتوجَّع ألمًا وحسرة حينما أخرجوا الكتب والأوراق من عنده في أُخْرَيات أيامه...» اهـ.

* قراءة شيخ الإسلام وهو مريض

قال الإمام ابن القيم في «روضة المحبِّين»[٢]: «وحدَّثني شيخنا ـ يعني ابنَ تيمية ـ قال: ابتدأني مرضٌ، فقال لي الطبيب: إن مُطالعتك وكلامك في العلم يزيد المرض، فقلت له: لا أصبر على ذلك، وأنا أُحاكمك إلى علمك، أليست النفس إذا فرحت وسُرَّت وقَوِيت الطبيعةُ فدفعت المرضَ؟ فقال: بلى، فقلت له: فإن نفسي تُسرُّ بالعلم فتقوى به الطبيعةُ فأجدُ راحةً، فقال: هذا خارجٌ عن علاجنا...» اهـ.

وقال ابنُ القيم أيضًا: «وأعرف من أصابه مرض من صداع وحُمَّى وكان الكتاب عند رأسه، فإذا وجد إفاقةً قرأ فيه، فإذا غُلِبَ وضعَه، فدخل عليه الطبيبُ يومًا وهو كذلك فقال: إن هذا لا يحلُّ لك فإنك تُعين على نفسك وتكون سببًا لِفَوْت مطلوبك» اهـ.

---

(١) «ابن تيمية السلفي»: (ص/٢٧). وانظر كتابنا «الجامع لسيرة شيخ الإسلام»: (ص/١٨٩).

(٢) (ص/٧٠).

* قراءة ابن الجوزي (٥٩٧) (٢٠ ألف) مجلدًا وهو بَعْدُ في الطلب

قال ابن الجوزي عن نفسِه في «صيد الخاطر»[١]: ـ أثناء حديثه عن المطالعة والأكثار منها ـ: «وإني أُخبر عن حالي: ما أشبع من مطالعة الكتب، وإذا رأيت كتابًا لم أره، فكأني وقعتُ على كنز. ولقد نظرتُ في ثَبَتِ الكتب الموقوفة في المدرسة النِّظَامية، فإذا به يحتوي على نحو ستة آلاف مجلَّد، وفي ثبت كتب أبي حنيفة، وكتب الحُمَيدي، وكتب شيخنا عبدالوهاب بن ناصر، وكتب أبي محمد بن الخشَّاب ـ وكانت أحمالاً ـ وغير ذلك من كلِّ كتاب أقدر عليه.

ولو قلت: إني طالعتُ عشرين ألف مجلد كان أكثر، وأنا بعدُ في الطَّلب» اهـ.

ثمَّ ذَكَر ما استفاده من المطالعة.

وهذا ابنُ الجوزي ـ أيضًا ـ يوصي العالمَ وطالبَ العلم بقوله[٢]: «ليكن لك مكان في بيتك تخلو فيه، وتحادث سطور كتبك، وتجري في حلبات فكرك» اهـ.

* حرص ابن عقيل (٥١٣) على الوقت وشغله بالمطالعة والعلم

ذكر ابن رجب الحنبلي في «الذيل على طبقات الحنابلة»[٣] في ترجمة ابنِ عقيل الحنبلي، عن ابنِ الجوزي أنه قال عنه: «كان دائم

---

(١) (ص/٥٥٧).

(٢) «صيد الخاطر»: (ص/٣١٨).

(٣) (١/١٤٥ ـ ١٤٦).

التشاغُل بالعلم، حتى إني رأيتُ بخَطِّه: إني لا يحلّ لي أن أُضيع ساعةً من عمري، حتى إذا تعطّل لساني عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عن مُطالعة، أعملتُ فِكري في حال راحتي وأنا مُسْتَطرِحٌ، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره. وإني لأجد من حِرصي على العلم وأنا في عَشْر الثمانين[1] أشدّ مما كنت أجده وأنا ابن عشرين سنة» اهـ.

ونقلَ ابنُ رجب من «الفنون» لابن عقيل أنه قال عن نفسِه: «أنا أقصر بغاية جهدي أوقات أكلي، حتى أختار سفَّ الكعك وتحسيه بالماء على الخبز؛ لأجل مابينهما من تفاوت المضغ؛ توفّرًا على مطالعةٍ، أو تسطير فائدة لم أُدركها فيه» اهـ.

* إذا لم اشتغل بالعلم، ماذا أصنع؟!

ذكر الإمام المقريزيّ في «المقفَّى الكبير»[2] العلامةَ ابنَ صدقة الحموي (٥٩٩) أنه كان كثيرَ الاشتغال بالعلم دائم التحصيل له. وذكر عن الحافظ المنذري أنه قال: «دخلتُ عليه يومًا وهو في سَرَبٍ تحت الأرض؛ لأجل شدَّة الحر، وهو يشتغل. فقلتُ له: في هذا المكان؟ وعلى هذه الحال؟!

---

(١) أي: العشر التي فيها الثمانين (من ٧١ إلى ٧٩).

(٢) (٧/ ٣٩٣ ـ ٣٩٤).

وقال المنذري: «إنه كان يأخذ الكتاب بالثمن اليسير ولا يزال يخدمه حتَّى يصير من الأمَّهات». ومثله شيخ علماء دمياط عبدالرحمن الخضري؛ فقد أنفق سنتين في إصلاح نسخته الخطية من «البرهان» لإمام الحرمين وترتيب أوراقها ومعرفة موضع الخلل فيها وكتابة نسخة منها، انظر مقدمة «البرهان»: (ص/ ٨٢)، و«الدرة المضيَّة»: (ص/ ١٧).

فقال: إذا لم أشتغل بالعلم، ماذا أصنع؟

قال المنذري: إنه وُجِدَ في تَرِكَته محابر ثلاث، أحدها تَسَعُ عَشَرة أرطال، والأخرى تسعة، والثالثة ثمانية».

* كتبه أحب إليه من وزنها ذهباً

وفي ترجمة الحافظ أبي طاهر بن أبي الصَّقر (٤٧٦) في «المنتظم»[١] لابن الجوزي أنه قال عنه: «كان من الجوَّالين في الآفاق، والمكثرين من شيوخ الأمصار، وكان يقول: هذه كتبي أحب إليّ من وزنها ذهبًا» اهـ.

وقد أُصِيْبَ ببعضها كما ذكر الذهبي في «تاريخ الإسلام»[٢]، أعظمَ اللهُ أجرَه في مصيبته بها.

* أُعجوبة في حفظ الوقت والتوفُّر على المطالعة

قال الحافظ السخاوي في «الضوء اللامع»[٣] في ترجمة أحمد بن سليمان بن نَصْر الله البُلْقاسي ثم القاهري الشافعي المتوفى سنة (٨٥٢) في ريعان شبابه[٤]: «وكان إمامًا علاَّمة قوي الحافظةِ حسنَ الفاهمة، مُشاركًا في فنونٍ، طلْقَ اللسان، محبًّا في العلم والمذاكرة والمباحثة،

---

(١) (٩/٩).

(٢) وفيات (٤٧٦)، (ص/١٧٦).

(٣) (١/٣١١)، و«القبس الحاوي»: (١/١٥٣) للشمَّاع، و«نظم العِقيان»: (ص/٤٢ - ٤٣).

(٤) ولد سنة (٨٢٤)، وتوفي سنة (٨٥٢) وعمره (٢٨) سنة، وهو مما فاتني ذِكره في كتابي «العلماء الذين لم يتجاوزوا سِن الأشُدِّ»، وسأذكره مع غيره في طبعةٍ لاحقة إن شاء الله تعالى.

غير مُنفك عن التحصيل، بحيث إنه كان يُطالع في مشيه، ويُقرىء القراءات في حال أكله خوفًا من ضياع وقته في غيره، أُعجوبة في هذا المعنى، لا أعلمُ في وقته من يُوازيه فيه، طارحًا للتكلُّف، كثير التواضع مع الفقراء، سهمًا[١] على غيرهم، سريع القراءة جدًّا» اهـ.

* أعرفه أكثر من (٥٠) سنة إمَّا يُطالع أو يكتب

قال السخاوي في «الضوء اللامع»[٢] في ترجمة محمد بن أحمد ابن محمد العُمَري الصَّغَاني ت (٨٥٤): «كان إمامًا علاَّمةً متقدمًا في الفقه والأَصْلَين والعربية مشاركًا في فنونٍ، حسن التقييد، عظيم الرغبة في المطالعة والانتقاء، بحيث بلغني عن أبي الخير بن عبدالقوي أنه قال: أعرفه أزْيَد من خمسين سنة، وما دخلتُ إليه قطُّ إلا ووجدته يُطالع أو يكتب» اهـ.

* كان لا ينفكُ من القراءة حتى وهو في الحمام

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في «روضة المحبين»[٣] ـ وهو يتكلم عن عِشْق العلم ـ: «وحدثني أخو شيخنا (يعني أحمد ابن تيميه) عبدُالرحمن ابن تيمية، عن أبيه (عبدالحليم) قال: كان الجَدُّ (أبو البركات) إذا دخل الخلاء يقول لي: اقرأْ في هذا الكتاب وٱرْفَعْ صوتك حتى أسمعُ» اهـ.

أقول: وهذا سندٌ كالشمس، رحم الله الجميع.

---

(١) في «القبس»: «شهمًا» بالمعجمة.
(٢) (٧/ ٨٤ ـ ٨٥)، و«الذيل التام»: (٢/ ٩٨).
(٣) (ص/ ٧٠).

* كان لا يَمَلُّ من المطالعة مع مزيد السَّهَر

قال السخاوي في «الضوء اللامع»[١] في ترجمة أحمد بن علي ابن إبراهيم الهيتي الشافعي ت (٨٥٣): «برع في الفقه وكثُرَ استحضارُه له، بل وللكثير من «شرح مسلم» للنووي؛ لإدمان نظره فيه... وكان لا يملّ من المطالعة والاشتغال، مع الخير والدين والتواضع، والجد المَحْض، والتقلُّل الزائد، والاقتدار على مَزِيْد السَّهر» اهـ.

* كان لا يُسافر إلا وأحمال الكتب معه يقرأ وينظر

● قال السخاوي في «الضوء اللامع»[٢] في ترجمته الإمام اللغوي محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ت (٨١٧) أنه اقتنى كتبًا نفيسَة (حتى سمعَه بعضهم يقول): «اشتريتُ بخمسين ألف مثقالٍ ذهبًا كتبًا، وكان لا يُسافر إلا وصحبته منها عدة أحمال، ويُخرج أكثَرَها في كل منزلةٍ فينظر فيها ثم يعيدها إذا ارتحل» اهـ.

● ومثله السيد صلاح بن أحمد المؤيدي اليماني ت (١٠٤٨)، قال عنه الشوكاني في «البدر الطالع»[٣]: «كان من عجائب الدهر وغرائبه؛ فإن مجموع عمره تسع وعشرون سنة، وقد فاز من كل فنٍّ بنصيبٍ وافر... وصنَّف في هذا العمر القصير التصانيف المفيدة والفوائد الفريدة العديدة ـ وذكر عددًا منها ثم قال ـ: وإذا سافر أول ما تُضْرَب

---

(١) (٢/٦).
(٢) (١٠/٨١).
(٣) (١/٢٩٣ ـ ٢٩٥). وذكر الشوكاني أنّ له قصائد طنَّانة يعجز أهلُ الأعمار الطويلة عن اللحاق به فيها، وأن له «ديوان شعر» كله غُرَر ودُرَر.

خيمةُ الكتب، وإذا ضُرِبت دخلَ إليها، ونَشَرَ الكتبَ، والخدمُ يصلحون الخِيَم الأُخرى، ولا يزال ليله جميعه ينظر في العلم، ويُحرر ويُقرِّر مع سلامة ذوقه. . .» اهـ.

* لا يوجد إلا وعنده كتاب ينظر فيه، وقلم يُصْلح به

قال الجَنَدِي السكسكي في «السلوك في طبقات العلماء والملوك»[(١)] في ترجمة أبي الخير بن منصور الشماخي السعدي ت (٦٨٠) ـ بعد ثنائه عليه: «ولم يكن له في آخر عمره نظير بجودة العلم، وضبط الكتب، بحيثُ لا يوجد لكتبه نظير في الضبط.

أخبرني جماعةٌ ممن أدركه أنه كان لا يوجد إلا وعنده كتابٌ ينظر فيه، ومحبرة وأقلام يصلح بهما ما وجَدَ في الكتاب. . .

(مات سنة ٦٨٠)، بعدَ أن جَمَعت خزانتُه من الكتب مالم تجمعه خزانة غيره ممن هو نظير له. . .» اهـ.

* ملازمة الكتب حضرًا وسفرًا، وحملها على ظهورهم في رحلاتهم

وفي هذا الباب عجائب وغرائب، فرحم الله تلك الأجساد، وأنزلها منازل الرِّضوان، كِفاء ما عملوا، وجزاء ما صبروا.

● ذكر الذهبي في «تذكرة الحفّاظ»[(٢)] عن ابن طاهر المقدسي أنه قال: بُلْتُ الدمَ في طلب الحديث مرتين؛ مرَّةً ببغداد، ومرة بمكة. كنتُ أمشي حافيًا في الحرِّ فلحقني ذلك، وما ركبتُ دابّة قط في طلب

---

(١) (٢/ ٣٠).
(٢) (٤/ ١٢٤٣).

الحديث، وكنت أحمل كتبي على ظهري، وما سألتُ في حال الطلبِ أحدًا، كنتُ أعِيْشُ على ما يأتي» اهـ.

● وذكر الذهبي - أيضًا - في «التذكرة»[١] عن الدغولي أنه قال: «أربعُ مجلَّداتٍ لا تُفارقني سفرًا وحضرًا؛ كتاب المُزَني، وكتاب العَيْن، والتاريخ للبخاري، وكليلة ودِمْنة»[٢].

● وفي ترجمة الإمام الحافظ الحسن بن أحمد الهَمَذاني في «الذيل على طبقات الحنابلة»[٣] عن تلميذه الحافظ عبدالقادر الرُّهاوي أنه قال عنه: «وكان عفيفًا من حبِّ المال، مهينًا له، باع جميعَ ماورثه - وكان من أبناء التُّجار - فأنفقَه في طلب العلمِ، حتى سافر إلى بغداد وأصبهان مرَّات ماشيًا يحمل كتبه على ظهره» اهـ.

ولما استقرَّ في بلده - بعد عودته من رحلته - عملَ دارًا للكتب وخزانةً وقفَ جميعَ كتبه فيها، وكان قد حصَّل الأصولَ الكثيرة، والكتبَ الكِبار الحِسَان بالخطوط المعتبرة.

---

(١) (٣/ ٨٢٤).

(٢) **كتاب المزني**: هو مختصره المشهور في فقه الشافعي.
كتاب العين: هو للخليل بن أحمد الفراهيدي في اللغة، أول كتابٍ معجمي.
كتاب التاريخ: للإمام البخاري، وله ثلاثة تواريخ، ولعل المقصود هنا: الكبير، وشُهْرته أظهر من أن تُذكَر، قال السخاوي في «الإعلان بالتوبيخ»: (ص/ ٧٩): «لو لم يكن من شرف هذا الفن - أي التاريخ - إلا كتابة البخاري لـ «تاريخه» في الليالي المُقْمرة في الروضة - الشريفة - وصلاته ركعتين لكل ترجمةٍ: لَكَفىٰ» اهـ.
وكليلة ودِمْنة: لابن المقفَّع، في الأدب والحكايات.

(٣) (١/ ٣٢٦).

● وفي «المرقبَة العُلْيا»[١] لأبي الحسن المالقي في ترجمة القاضي أحمد بن يزيد ـ الأموي مِن وَلَد بَقِيّ بن مخلد القرطبي ت (٦٢٥): أنه ألَّف كتابًا في الآيات المتشابهات، قيل: إنه من أحسن شيءٍ في بابه، وكان لا يُفارقه في سَفَر ولا في حَضَر.

● وذكر الحافظ الذهبي في «سِيَر أعلام النُّبلاء»[٢] في ترجمة القاضي الرَّامَهُرْمُزي لمَّا ذكر كتابه: «المحدِّث الفاصل» قال: «في علوم الحديث، وما أحسنه من كتابٍ[٣]! قيل: إنَّ السِّلَفِي كان لايكادُ يُفارق كُمَّه ـ يعني في بعضِ عمره ـ» اهـ.

● وفي «سِيَر النبلاءِ»[٤] ـ أيضًا ـ: «قال الحافظ يحيى بن عبدالوهاب (ابن منده): كنتُ مع عمي عبيدالله في طريق نَيْسابور، فلما بلغنا بِئر مَجَنَّة، قال عمِّي: كنت هاهنا مرَّةً، فعرضَ لي شيخ جمَّال؛ فقال: كنتُ قافلاً من خراسان مع أبي، فلمَّا وصلنا إلى هاهنا؛ إذا نحن بأربعين وِقْرًا من الأحمال، فظننا أنها منسوج الثياب، وإذا خيمة صغيرة فيها شيخ، فإذا هو والدك، فسأله بعضُنا عن تلك الأحمال؟ فقال: هذا متاعٌ قلَّ من يرغبُ فيه في هذا الزمان، هذا حديث رسول الله ﷺ» اهـ.

● وفي «طبقات الحنابلة»[٥] لابن أبي يَعْلى، و«تذكرة الحفاظ»[٦]

---

(١) «المرقَبةُ العُلْيا فيمن يستحق القضاء والفُتْيا»: (ص/ ١١٧ ـ ١١٨).
(٢) (١٦/ ٧٣).
(٣) وقال الذهبيُّ بعدُ: وكتابُه المذكور يُنبىء عن إمامته.
(٤) (١٧/ ٣٧).
(٥) (١/ ١١٤).
(٦) (٢/ ٥٢٤).

للذهبي في ترجمة إسحاق بن منصور الكَوْسَج (٢٥١): «عن حسان ابن محمد قال: سمعتُ مشايخَنا يذكرون: أن إسحاق بن منصور بلغه أن أحمد بن حنبل رجع عن تلك المسائل التي علَّقها عنه. قال: فجمعَ إسحاق بن منصور تلك المسائل في جِراب، وحملها على ظهره، وخرج راجلاً إلى بغداد وهي على ظهره. وعرض خُطوطَ أحمد عليه في كلِّ مسألةٍ استفتاه فيها، فأقرَّ له بها ثانيًا. وأُعْجِب أحمدُ بذلك من شأنه» اهـ.

● وذكر ياقوت في «معجم الأدباء»[1]، والقِفطي في «إنباه الرواة»[2] وعنه ابن خلكان في «الوفيات»[3] في ترجمة اللغوي ابن الخطيب التِّبْرِيْزي (٥٠٢) أنه حصلت له نسخة لكتاب الأزهري (تهذيب اللغة) في عدة مجلدات لِطَاف، وأراد أخذها عن عالمٍ باللغة، فدُلَّ على أبي العلاء المعرِّي، فجعلها في مِخْلاةٍ، وحملها على كتفه من تِبْريز إلى المعرَّة ـ ولم يكن له ما يستأجر به مركوبًا ـ فَنَفَذَ العرقُ من ظهره إليها.

وقيل: إنها ببعض الوقوف البغداذية وأن الجاهل بخبرها إذا رآها يظن أنها غريقة، وليس الذي بها إلا عَرَق يحيى بن علي ـ رحمه الله ـ.

* من استغنى بمجالسة كتبه عن مخالطة الناس

● ابن المبارك

ذكر الذهبي في «السير»[4]: «عن نُعيم بن حماد قال: كان ابن المبارك

---

(١) (٢٠/ ٢٦ ـ ٢٨).
(٢) (٤/ ٢٨ ـ ٢٩).
(٣) (٦/ ١٩٢)، وانظر «الفلاكة والمفلوكون»: (ص/ ٧١).
(٤) (٨/ ٣٨٢)، وهو بنحوه في «تقييد العلم»: (ص/ ١٢٦)، و«تاريخ بغداد»: =

يُكثر الجلوسَ في بيته، فقيل له: ألا تستوحِش؟ فقال: كيف أستوحِشُ وأنا مع النبي ﷺ وأصحابه؟!» اهـ.

وأسند الخطيب في «تقييد العلم»[1] عن ابن المبارك قوله: من أحبَّ أن يستفيد؛ فليظر في كتبه.

● الذُّهْلي

وفي «تاريخ بغداد»[2]: «أن يحيى بن (محمد بن يحيى) الذُّهْلي قال: دخلتُ على أبي في الصيف الصائف وقتَ القائلة، وهو في بيت كتبه، وبين يديه السِّراج، وهو يُصنِّف، فقلتُ: يا أبةِ! هذا وقتُ الصلاة، ودُخانُ هذا السِّراج بالنهار، فلو نفَّسْت عن نفسك. قال: يابُنَيَّ تقولُ لي هذا وأنا مع رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين» ؟!.

● ابن الأعرابي

ساق ابن عبدالبر بسنده في «جامع بيان العلمِ وفضله»[3] أن أحمد بن محمد بن شجاع بعثَ غلامًا من غِلْمانه إلى أبي عبدالله بن الأعرابي ـ صاحب الغريب ـ يسأله المجيءَ إليه، فعاد إليه الغلام، فقال: قد سألته ذلك، فقال لي: عندي قوم من الأعراب، فإذا قضَيتُ أَرَبي منهم أتيتُ، قال الغلام: وما رأيتُ عنده أحدًا، إلا أن بين يديه كتبًا ينظر فيها، فينظر في هذا مرَّة وفي هذا مرة، ثم ما شعرنا حتى جاء، فقال له

= (١٠/١٥٦)، و«الجليس الصالح»: (١/١٦٣ ـ ١٦٤).
(١) (ص/١٤٠).
(٢) (٣/٤١٩)، وانظر: «السير»: (١٢/٢٧٩ ـ ٢٨٠).
(٣) (٢/١٢٢٧ ـ ١٢٢٨).

أبو أيوب: يا أبا عبدالله! سبحان الله العظيم، تخلَّفت عنَّا وحَرَمْتنا الأُنسَ بك، ولقد قال لي الغلامُ: إنه ما رأى عندك أحدًا، وقلتَ: أنا مع قومٍ من الأعراب، فإذا قضيتُ أَرَبي معهم أتيتُ، فقال ابنُ الأعرابي:

لنا جُلَساءٌ ما نَمَلُّ حديثَهم ... أَلِبَّاءُ مأمونون غَيْبًا ومَشْهدا
يُفيدوننا من علمهم علمَ ما مَضىٰ ... وعقلاً وتأديبًا ورأيًا مُسَدَّدا
بِلا فتنةٍ تُخشىٰ ولا سوء عِشْرةٍ ... ولا يُتَّقَىٰ منهم لسانًا ولا يدا
فإن قلتَ: أمواتٌ فلا أنتَ كاذِبٌ ... وإن قلتَ: أحياءٌ فلستَ مُفَنَّدا

● وقيل لرجلٍ: من يُؤنِسُكَ؟ فضربَ بيده إلى كتبه، وقال: هذه؛ فقيل: مِن الناسِ؟ فقال: الذين فيها[1].

خليلي كتابي لا يَعاف وصاليا ... وإن قلَّ لي مالٌ وولَّى جماليا
كتابي عَشيقي حين لم يبقَ مَعْشَق ... أُغازله لو كان يدري غزاليا
كتابي جليسي لا أخاف ملاله ... محدّث صدقٍ لا يخاف ملاليا
كتابي بحر لا يغيض عطاؤه ... يُفيض عليَّ المال إن غاض ماليا
كتابي دليلٌ لي على خير غايةٍ ... فمن ثَمَّ إدلالي ومنه دلاليا

قيل: إن هذه الأبيات ـ وغيرها ـ كانت على باب خزانة الإمام أبي بكر القفَّال[2].

---

(١) «تقييد العلم»: (ص/ ١٢٥).
(٢) «تقييد العلم»: (ص/ ١٢٧).

● المعافىٰ النهرواني

وقال الإمام المعافَىٰ بن زكريا النهرواني الجَرِيْري ـنِسْبَةً إلى مذهب ابن جرير الطبري ـ ت (٣٩٠) في كتابه: «الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي»(١): «وقد كان بعض من كان له في الدنيا صِيْتٌ ومكانة عاتبني على ملازمة المنزل، وإغبابي زيارتَه، وإقلالي ما عوَّدته من الإلمام به وغِشيان حضرته، فقال لي: أما تستوحش الوِحْدَة؟ ونحو هذا من المقالة.

فقلتُ له: أنا في منزلي إذا خلوتُ من جليسٍ يقصد مجالستي، ويؤثر مساجلتي، في أحسن أُنسٍ وأجملِه، وأعلاه وأنبلِه؛ لأنني أنظر في آثار الملائكة والأنبياء، والأئمة والعلماء، وخواصّ الأعلام الحكماء، وإلى غيرهم من الخلفاء والوزراء، والملوك والعظماء، والفلاسفة والأدباء، والكُتَّاب والبلغاء، والرُّجَّاز والشعراء، وكأنني مُجَالِسٌ لهم، ومستأنسٌ بهم، وغير ناءٍ عن محاضرتهم، لوقوفي على أنبائهم، ونظري فيما انتهى إليَّ من حِكَمهم وآرائهم» اهـ.

* ما تزوَّج، لم يشتغل إلا بالعبادة والمطالعة

قال الذهبي في «سير النبلاء»(٢) في ترجمة عيسى بن أحمد اليونيني ت (٦٥٤): «لم يشتغل إلا بالعبادة والمطالعة، وما تزوج(٣)، بل عَقَد على عجوزٍ تخدمه» اهـ.

---

(١) (١/ ١٦٤).
(٢) (٢٣/ ٣٠٠).
(٣) لا يُفْهم من هذا الدعوة إلى ترك الزواج، بل الأصل الترغيب فيه والحثّ عليه، وقد يُخرج عن هذا الأصل لعوارض مُدَوَّنة في أماكنها من كتب الفقه.

* إما أن ينسخ، أو يُدَرِّس، أو يقرأ

وفي «تبيين كذب المفتري»[١] لابن عساكر أنه قال في ترجمة الفقيه سُلَيْم بن أيوب الرازي: «حُدِّثتُ عنه أنه كان يُحاسِب نفسَه على الأنفاس، لا يدع وقتًا يمضي عليه بغير فائدة؛ إما ينسخ أو يُدَرس أو يقرأ... ولقد حدثني عنه شيخُنا أبو الفرج الإسفراييني أنه نزل يومًا إلى داره ورجع، فقال: قد قرأتُ جزءًا في طريقي».

وقال: إنه كان يُحرِّك شفتيه إلى أن يَقُطَّ القَلَم.

* لا لذة له في غير جَمْع الكتب وتحصيلها

جاء في «سِيَر النبلاء»[٢] في ترجمة المستنصر بالله أبي العاص الحكم بن عبدالرحمن الأُموي، صاحب الأندلس أنه «كان جَيِّد السيرة، وافر الفضيلة... ذا غرامٍ بالمطالعة وتحصيل الكتب النفيسة الكثيرة

---

(١) (ص/ ٢٦٣)، و«سير النبلاء»: (١٧/ ٦٤٦).
والفقيه سُلَيْم الرازي ممن طلب العِلْم على كِبَر السِّن، فقد طلبه بعد سنِّ الأربعين، كما ذكر ابن عساكر في كتابه السابق: (ص/ ٢٦٢).
ويُحفظ مثل هذا لعددٍ من العلماء، أذكر منهم: صالح بن كيسان، انظر: «تهذيب التهذيب»: (٤/ ٤٠٠)، والعز بن عبدالسلام، كما في «طبقات الشافعية»: (٨/ ٢١٢)، وطبقات المفسرين: (١/ ٣٢١)، وعلي بن حمزة الكِسائي النحوي، كما في «تاريخ بغداد»: (١١/ ٤٠٤). وكذلك عدد من الشعراء؛ كالنابغتين الجَعْدي والذُّبياني، انظر: «الشعر والشعراء»: (ص/ ١٣١، ٦١) على التوالي.

(٢) (١٦/ ٢٣٠)، وقد وصفه الذهبي بقوله: «وكان عالمًا إخباريًّا، وقورًا، نسيجَ وَحْدِه» قال الذهبي: «ومن محاسنه أنه شدَّد في الخمر في ممالكه، وأبْطَلَه بالكلِّية، وأَعْدَمه، وكان يتأدَّب مع العلماء والعبَّاد» اهـ.

حقّها وباطلها، بحيثُ إنها قاربت نحوًا من مئتي ألفِ سِفر. . .

وكان باذلاً للذهبِ في استجلاب الكتب، ويُعطي من يتَّجِرُ فيها ماشاء، حتَّى ضاقت بها خزائِنُه، لا لذَّة له في غير ذلك.

وكان الحَكَمُ موثَّقًا في نقلِه، قلَّ أن تجد له كتابًا إلا وله فيه نظرٌ وفائدة، ويكتب اسمَ مؤلفه ونَسبَه ومولِدَه، ويُغرب ويُفيد» اهـ.

* الاشتغال عن النوافل باتمامِ مطالعة كتاب

وفي ترجمة الإمام تقي الدين ابن دقيق العيد ت (٧٠٢) من كتاب «الطالع السعيد»[(١)] للأُدفوي أنه لما وصل إليه كتاب «الشرح الكبير»[(٢)] للإمام الرافعي ـ وكان اشتراه بألف درهم ـ اشتغلَ بمطالعته، وصار يقتصر من الصلوات على الفرائض فقط[(٣)].

* الانكباب على النظر والقراءة حتى في المجالس الخاصَّة

قال ابنُ القاضي المِكْناسي في «دُرَّةِ الحِجال»[(٤)] في ترجمة محمد ابن عليِّ بن سليمان السَّطِّي ت (٧٤٩): «وكان مُقبلاً على ما يَعْنيه، مُكِبًّا على النظر والقراءةِ والتقييد، لا تراه أبدًا إلا على هذه الأحوال حتى في المجلس السلطاني. . .» اهـ.

---

(١) (ص/ ٥٨٠)، وانظر: «جواهر العِقْدَين في فضل الشرفَيْن»: (١/ ١١٩).

(٢) المسمَّى: «فتح العزيز على كتاب الوجيز» للإمام أبي القاسم عبدالكريم بن محمد القزويني الرافعي ت (٦٢٣) في فقه الشافعية، وقد طبع كاملاً أخيرًا.

(٣) وفيه بحثٌ.

(٤) (٢/ ١٣٥). وقال عنه: «وكان يُعْتبَر خِزَانة مذهب مالك، مع مشاركة تامة في الحديث والأصلين واللسان».

ونحوه عن أبي العباس اللغوي المعروف بثَعْلَب ت (٢٩١)؛ فقد جاء في كتاب: «الحث على طلب العلم والاجتهاد في جَمْعه»[١] لأبي هلالٍ العَسْكري قال: «وحَكيَ عن ثعلب أنه كان لا يُفارقه كتابٌ يَدْرُسه، فإذا دعاه رجل إلى دعوةٍ، شَرَطَ عليه أن يوسعَ له مقدارَ مِسْوَرَةٍ يضعُ فيها كتابًا ويقرأ».

* ثلاثة لا يُعْلم أكثر منهم محبة في القراءة

ذكر ياقوت الحموي في «إرشاد الأريب»[٢] في ترجمة الجاحظ قال: «وحدَّث أبو هِفَّان قال: لم أر قط ولا سمعتُ مَنْ أحبَّ الكتبَ والعلومَ أكثر من الجاحظ؛ فإنه لم يقع بيده كتابٌ قطُّ إلا استوفى قراءتَه كائنًا ما كان، حتى إنّه كان يَكْتري دكاكين الورّاقين ويبيتُ فيها للنظر.

والفتح بن خاقان؛ فإنه كان يحضر لمجالسة المتوكِّل، فإذا أراد القِيام لحاجةٍ أخرجَ كتابًا من كُمه أو خفِّه وقرأه في مجلس المتوكل إلى حِين عَوْده إليه حتى في الخلاء.

وإسماعيل بن إسحاق القاضي؛ فإني ما دخلتُ إليه إلا رأيتُه يَنظر في كتابٍ، أو يُقلب كتبًا أو ينفضها» اهـ.

* في المقبرة أو مع الكتاب

قال الجاحظ في كتاب «الحيوان»[٣]: «قال ابنُ داحة: كان عبدُالله

---

(١) (ص/ ٧٧).

(٢) (١٦/ ٧٥)، وأسنده الخطيب في «تقييد العلم»: (ص/ ١٣٩ ـ ١٤٠) بسياق آخر ـ قريب ـ عن المبرّد.

(٣) (١/ ٦٢). وأسنده الخطيب في «تقييد العلم»: (ص/ ١٤٢)، وابن عبدالبر في «الجامع»: (٢/ ١٢٣١).

ابن عبدالعزيز بن عبدالله بن عمر بن الخطاب، لا يجالِسُ الناسَ، وينزلُ مقبُرَة من المقابر، وكان لايكاد يُرى إلا وفي يده كتابٌ يقرؤه، فسُئل عن ذلك، وعن نزوله المقبُرَة؟ فقال:

لم أرَ أوْعظ من قَبْر، ولا أمنعَ من كتابٍ، ولا أسلَمَ مِن الوَحْدة. فقيل له: قد جاء في الوَحْدة ماجاء! فقال: ما أفْسَدَها للجاهل وأصلحها للعاقل![1]» اهـ.

* مجلسه بين كتبه أفخم وأنبل من مجلسه بين حاشيته

قال الجاحظ في «الحيوان»[2]: «ولقد دخلتُ على إسحاق بن سليمان في إمْرَته، فرأيتُ السِّماطَين[3] والرجال مُثُولاً كأنّ على رءوسهم الطير، ورأيتُ فِرشته وبِزَّته؛ ثم دخلتُ عليه وهو معزول، وإذا هو في بيت كتبِه، وحواليه الأسفاط والرُّقوق، والقماطِر والدفاتر والمساطر والمحابر، فما رأيته قط أفخمَ ولا أنبلَ، ولا أهيبَ ولا أجزلَ منه في ذلك اليوم؛ لأنه جمعَ مع المهابَةِ المحبَّةَ، ومع الفخامةِ الحلاوةَ، ومع السُّودَدِ الحِكمةَ» اهـ.

* أربعون عامًا لا ينام إلا والكتاب على صدره

قال الجاحظ في «الحيوان»[4]: «سمعتُ الحسن اللؤلؤي[5] يقول:

---

(١) سئل أبو الوفاء بن عقيل الحنبلي: «ما تقول في عُزلة الجاهل؟ فقال: خَبَال ووبال، تضرّه ولا تنفعه. فقيل له: فعزلة العالم؟ قال: مالك ولها، معها حِذاؤها وسِقاؤها، ترِد الماء وترعى الشجر، إلى أن يلقاها ربُّها» «ذيل الطبقات»: (١/ ١٦١)، وانظر: «العزلة» للخطابي، وابن الوزير، والعودة.

(٢) (١/ ٦١ ـ ٦٢).

(٣) صَفَّين من الجنود وغيرهم.

(٤) (١/ ٥٢ ـ ٥٣).

(٥) الكوفي، صاحب أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ.

غَبَرَتْ أربعين عامًا ما قِلْتُ ولا بِتُّ ولا اتكأتُ إلا والكتابُ موضوعٌ على صدري».

* إذا غلبَه النومُ أمسكَ كتابًا ليطرده

«قال ابن الجَهْم[١]: إذا غشيني النُّعاس في غير وقت نوم ـ وبئس الشيءُ النومُ الفاضِلُ عن الحاجة ـ قال: فإذا اعتراني ذلك تناولتُ كتابًا من كتب الحِكَم، فأجدُ اهتزازي للفوائد، والأريحية التي تعتريني عند الظَّفَر ببعض الحاجة، والذي يَغْشىٰ قلبي من سرور الاستبانة وعزّ التبيين[٢] أشدَّ إيقاظًا من نهيق الحمير وهَدَّة الهَدْم».

أقول: فهذا غايةٌ في الشَّغَفِ والتعلُّقِ بالكتبِ والعلم! فإذا غَلَبه النُّعاس طردَه باستجلاب الكتب والنظر فيها؛ فيهتزُّ لفوائدها، ويَطْرَبُ لحِكَمها. فأين هذا من (طُلاب!) يستجلبون النومَ بالنظر في الكتب؟! فاختلاف الحالين وتبايُن النتيجتين تَبَعٌ لاختلاف مكانة العلم والكتب عند الفريقَين[٣]!!.

* ضَعُفَ بصرُه من كثرة المطالعة

وفي ترجمة الحافظ عبدالغني المقدسي صاحب «الكمال»[٤]

---

(١) نقله عنه الجاحظ في «الحيوان»: (١/ ٥٣).

(٢) قال العلامة عبدُالسلام هارون: لعلها: «التبيّن».

(٣) وينطبق على هؤلاء الكُسالى ـ لا كثَّرهم الله ـ ما ذكره الجاحظ في «البيان والتبيُّن»: (١/ ١٧٠) قال: «قال رجل لخالد بن صفوان (أحد بلغاء العرب وفصحائها): ما لي إذا رأيتكم تتذاكرون الأخبار، وتتدارسون الآثار، وتتناشدون الأشعار؛ وقعَ عَلَيَّ النوم؟! قال: لإنك حمارٌ في مِسْلاخ إنسان» اهـ.

(٤) «الكمال في معرفة الرجال» في رجال الكتب الستة، لا يزال مخطوطًا، وهو =

ت (٦٠٠) من كتاب «ذيل الروضتين»[١] لأبي شامة المقدسي قال: «وكان قد ضعف بصره من كثرة المطالعة والبكاء، وكان أوحدَ زمانه في علم الحديث» اهـ.

* همته في المطالعة والقراءة

قال السخاوي في «الجواهر والدرر»[٢] عن شيخه ابنِ حجر: «إنما كانت همته المطالعة والقراءة والسَّماع والعبادة والتصنيف والإفادة، بحيث لم يكن يُخْلي لحظةً من أوقاته عن شيءٍ من ذلك، حتى في حال أكْلِه وتوجُّهه وهو سالك، كما حكى لي ذلك بعض رُفْقَته الذين كانوا معه في رحلته، وإذا أراد الله أمرًا هيَّأ أسبابَه[٣].

وقد سمعته ـ رحمه الله ـ يقول غيرَ مرَّة: إنني لأتعجَّب ممن يجلس خاليًا عن الاشتغال!!» اهـ.

أقول: رحم الله القائل ـ وهو أبو بكر الشهرزوري ـ:

هِمَّتي دُوْنها السُّها والزُّبانا[٤] قد عَلَت جهدها فما يتدَانَىٰ

فأنا مُتْعَبٌ مُعَنًّى إلى أن تتفانَىٰ الأيامُ أو أَتَفانَىٰ

= أصل «تهذيب الكمال» للمِزِّي وفروعه، انظر مخطوطاته في «الفهرس الشامل»: (٢/ ١٣٠٢).

(١) (ص/ ٤٧).

(٢) (١/ ١١٠)، (١/ ١٧٠ ـ ط ابن حزم).

(٣) ذكر السخاوي عن شيخه عجائب في القراءة، والكتابة، والهِمَّة في تحصيل العلوم، سُقْنا طرفًا منها في تفاريق كتابنا هذا ـ رحم الله الجميع ـ.

(٤) السُّها: نجم معروف، والزُّبانا: كوكبان نَيِّران في قرنَي العقرب.

* مع الكتب حتى في الجنَّة

ذكر ابنُ رجب في «ذيل الطبقات»[1] عن ابنِ الجوزي أنه قال عن الإمام أبي العلاء الهَمَذَاني الحافظ ت (٥٦٩): «بلغني أنه رُئيَ في المنام في مدينةٍ جميع جدرانها من الكتب، وحوله كتب لا تُحَدّ وهو مُشْتَغل بمطالعتها. فقيل له: ما هذه الكتب؟! قال: سألتُ الله أن يُشغلني بما كنتُ أشتغل به في الدنيا؛ فأعطاني».

ومما يدلك على عظيم شَغَفه بالكتب، وبذله في تحصيلها كلَّ نفيس حتى داره التي يسكنها!! ما في كتاب ابن رجب عن الإمام طلحة العَلْثي قال: «بِيْعت كتبُ ابنِ الجواليقي في بغداد، فحضرها الحافظُ أبو العلاء الهَمَذَاني، فنادَوا على قطعةٍ منها: ستين دينارًا، فاشتراها الحافظ أبو العلاء بستين دينارًا، والإنظار من يوم الخميس إلى يوم الخميس.

فخرج الحافظ، واستقبل طريقَ هَمَذَان، فوصل، فنادى على دارٍ له، فبلغت ستين دينارًا. فقال: بيعوا. قالوا: تبلغ أكثر من ذلك. قال: بيعوا. فباعوا الدار بستين دينارًا فقَبَضَها، ثم رجع إلى بغداد. فدخلها يوم الخميس، فوفَّىٰ ثمنَ الكتب، ولم يشعر أحدٌ بحالِهِ إلا بعد مُدَّة» اهـ.

ومما يُؤثر ـ أيضًا ـ في بيع العلماء بيوتهم من أجل شراء الكتب؛ ما ذكره ابن رجبٍ ـ أيضًا ـ في «ذيل الطبقات»[2] في ترجمة العلامة النحوي عبدالله بن أحمد المعروف بابن الخشَّاب ت (٥٦٧) عن ابنِ النجار قال:

---

(١) (١/ ٣٢٨)، ووقع فيه: «الهمداني» بالدال المهملة، وهو خطأ.
(٢) (١/ ٣١٩).

إنه لم يَمُت أحدٌ من أهل العلم وأصحاب الحديث، إلا وكان يشتري كتبه كلَّها، فحصلت أُصول المشايخ عنده.

وذَكَرَ عنه: أنه اشترى يومًا كتبًا بخمس مئة دينارٍ ولم يكن عنده شيءٌ، فاستمهلهم ثلاثة أيامٍ، ثم مضى ونادى على داره، فبلغت خمس مئة دينار، فَنَقَد صاحبَها وباعه بخمس مئة دينار، ووفَّى ثمن الكتب، وبقيت له (لصاحب الكتب) الدار[1].

---

(١) إلا أنهم ذكروا في ترجمته أمورًا تُخِل بقاموس العلم.
* فذكر ياقوت في «إرشاد الأريب»: (١٢/ ٥١): أنه كان إذا حَضَر سوقَ الكُتُب، وأراد شِراء كتابٍ، غَافَل الناسَ وقطعَ منه ورقةً، وقال: إنه مقطوع ليأخذَه بثمنٍ بخسٍ!.
وذكر ذلك الذهبي في «السير»: (٢٠/ ٥٢٧)، قال: ولعلَّه تاب. وذكر منامًا!.
* وذكر ياقوت ـ أيضًا ـ أنه كان إذا استعار من أحدٍ كتابًا وطالبه به، قال: دَخَلَ بين الكُتُب فلا أقدر عليه!!.
* وأشار السمعاني إلى مجمل ذلك، فقال: «وجمع الأصول الحِسَان من أيِّ وجهٍ اتفق له» وزاد: وكان يضنّ بها!!.
إلا أن القِفْطي في «إنباه الرواة»: (٢/ ١٠١) ذم مُقْتنيات ابن الخشَّاب من الكتب فقال: «وكان لا يقتني من الكتب إلا أردأها صورة، وأرخصها ثمنًا»، وهذا مخالف لما سبق!.
أقول: فلهذه الأمور مجتمعةٍ = تحايله في تحصيل الكتب، وجحْده العاريَّة، وضَنِّه بالكتب على أهلها = تفرَّقت بعدَه، وبِيعَ أكثرها، ولم يبق إلا عُشرها.
ووصفها القِفْطي بقوله: «وكانت له دار عتيقة... وله منها صُفَّة كبيرة منفردة، وبها بواري قَصَبٍ مفروشة، وفي صدرها ألواح من الخشب، مرصوص عليها كتب له، أقامت عِدَّة سنين ما أُزيل عنها الغُبار، وكانت تلك البواريّ قد استترت بما عليها من التراب، يقعد في جانب منها، والباقي على تلك الحالة. وقيل: إن الطيور عششت فوق الكتب وفي أثنائها» اهـ. «إنباه الرواة»: (٢/ ١٠٠). =

* الكتب أشد من ثلاث ضرائر

أخرج الخطيبُ في «الجامع لأخلاق الراوي والسامع»[١] عن الزُّبير ابن أبي بكر بكَّارٍ قال: قالت ابنة أُختي لأهلنا: خالي خيرُ رجلٍ لأهله؛ لا يتخذ ضرَّةً ولا يشتري جارية. قال: تقولُ المرأةُ (أي زوجته): والله لَهَذه الكتب أشدُّ عليَّ من ثلاثِ ضرائر!!» اهـ.

* حتى أحلام اليقظة في الكتب

ذكر السَّمهودي في «جواهر العِقْدَين في فضل الشرَفَيْن»[٢] عن شيخه أبي زكريا المُنَاوي (٨٧١) قال: أخبرني شيخُنا الشيخ وليُّ الدين (يعني أبا زُرْعة بن الحافظ زين الدين العِراقي) مذاكرةً: أنه ركبَ مع شخصٍ من المكاريَّة من طائفة الريافة، قال: فقلتُ في نفسي ـ وقد خاضت في الأمل ـ: لو كان لي أربعُ زوجاتٍ في أربع مساكن، وفي كلِّ مسكنٍ من الكتب التي احتاجها نظير ما في بقيَّة المساكن. . .»[٣] اهـ.

= وما فعله ابنُ الخشَّاب؛ يُعد من مسوِّغات ذِكْرِه بما يكره، ولا يُعَدّ ذلك غيبة، بل هو نصيحة واجبة، كما نبّه عليه السخاوي في «الإعلان بالتوبيخ»: (ص/٨٨).

(١) (١/ ١٤٩ ـ ١٥٠)، وانظر «سير النبلاء»: (١٢/ ٣١٣).
وزوجته خبيرةٌ به، طويلة العِشْرة معه، فقد سُئل الزبير: مُنذ كم زوجتك معك؟ قال: لا تسألني، ليس ترِدُ القيامة أكثر كِباشًا منها، ضحَّيتُ عنها سبعينَ كَبْشًا. «تاريخ بغداد»: (٨/ ٤٧١).

(٢) (١/ ١٦٢).

(٣) وإذ قد ذُكر الغرام بالنساءِ والكتب؛ فهذا القاضي برهان الدين الزرعي الحنبلي ت (٧٤١) كان مُغرمًا بالجواري التركيات، قال الصفدي في: «أعيان العصر»: (١/ ٤٥): «كنتُ أراه جُمعةً في سوق الجواري، وجُمعةً في سوق الكتب؛ ليجمع بذلك بين الدُّر والدراري!!» اهـ.

* لا تمضي عليه ساعة إلا في اشتغالٍ بالعلم

نقل ابن رجب في «ذيل الطبقات»[١] في ترجمة العلامة أبي البقاء عبدالله بن الحسين العُكْبَري ت (٦١٦) عن ابن النجار قولَه: «قرأتُ عليه كثيرًا من مصنَّفاته، وصحبته مدَّة طويلة... وكان مُحِبًّا للاشتغال والإشغال[٢]، ليلاً ونهارًا، ما يمضي عليه ساعة إلا وواحد يقرأ عليه، أو مُطَالع له، حتى ذكر لي أنه بالليل تقرأ له زوجته في كتب الأدب وغيرها».

* التحسُّر على الكتب وجعلها بمنزلة الولد

وذكر ابن رجب في «الذيل»[٣] في ترجمة عبدالصمد بن أحمد ابن أبي الجَيْش البغدادي العلامة المتفنِّن ت (٦٧٦) أنه صنَّف خُطبًا انفرد بفنِّها وأُسلوبها وما فيها من الصَّنْعة والفصاحة، وجمع منها شيئًا كثيرًا، ذهبَ في واقعة بغداد[٤] مع كتبٍ له أُخرى بخطِّه وأُصوله، حتى كان

(١) (٢/ ١١١).
(٢) أي: للتعلُّم والتعليم.
(٣) (٢/ ٢٩٢).
(٤) واقعة هجوم التتار عليها، وسقوط الخلافة العباسية سنة (٦٥٦).
أقول: يَكْثر ذِكْر هذه الواقعة عند الحديث عن الكتب وما أُتلِفَ منها... ويستكثر الناسُ من إيراد أخبار التتار وما فعلوه؛ لكن أعجبتني لفتة لتاج الدين السبكي في «طبقاته»: (١/ ٣١٢) فبعد أن ذكر بضعَ صفحاتٍ من أخبارهم قال: «ويكفي الفقيه ما أوردناه، فأوقات طالب العلم أشرف أن تضيع في أخبارهم، إلا للاعتبار بها، وما أوردناه عبرةً للمعتبرين، وكافٍ للمتعظين» اهـ.

يقول: «في قلبي حَسْرتان: ولدي وكُتُبي» (وكانا قد فُقِدا جميعًا في واقعة بغداد).

* لا يمشي إلا وفي يده كتاب

وكان كثير من مشاهير العلماء لا يمشي إلا وفي يده كتب أو أجزاء يُطالعها، وذلك لمزيد شغفهم بالقراءة والاطلاع، وعظيم حرصهم على أوقاتهم من الضياع.

● قال الذهبي في «السير»[١]: «قال ابنُ الآبنوسي: كان الحافظ الخطيب يمشي وفي يده جُزْءٌ يُطالعه».

● وفي «تذكرة الحفاظ»[٢] للذهبي في ترجمة أبي داود السجستاني صاحب «السنن»: «قال ابنُ دَاسَة: كان لأبي داود كُمٌّ واسع وكمٌّ ضيِّق؛ فقيل له في ذلك؟ فقال: الواسِع للكتب، والآخر لا يُحتاج إليه».

● وفي ترجمة العلامة النحوي أحمد بن يحيى المعروف بثَعْلَب ت (٢٩١) من كتاب «وفيات الأعيان»[٣] لابن خَلِّكان قال: «كان سببَ وفاته: أنه خرج من الجامع يوم الجمعة بعد العصر، وكان قد لحقه صَمَمٌ لا يسمع إلا بعد تعب، وكان في يده كتاب ينظر فيه في الطريق؛ فصدمَتْه فرسٌ، فألقَتْهُ في هُوَّةٍ، فأُخرجَ منها وهو كالمختلط، فحُمِل إلى منزله على تلك الحال وهو يتأوَّهُ مِن رأسه، فمات ثاني يومٍ» اهـ.

---

(١) (١٨/٢٨١).
(٢) (٢/٥٩٢).
(٣) (١/١٠٤).

● وذكر العسكري في «الحث على طلب العلم»[١]: أن أبا بكرٍ الخياط ـ العلامة النحوي محمد بن أحمد البغدادي ت (٣٢٠) ـ كان يَدْرُسُ جميعَ أوقاته، حتى في الطريق، وكان ربَّما سَقَط في جُرْف أو خبطته دابَّة».

● وتقدم معنا خبر الإمام سُلَيم الرازي[٢].

● وكان كثير من العلماء يُقرأ عليه الكتاب وهو يمشي في الطريق صِيانة للوقت، وحبًّا في الإفادة، كما هو الحال في ترجمة الحافظ أبي نعيم الأصبهاني صاحب «الحلية» ت (٤٣٠) كما في «تذكرة الحفاظ»[٣].

● وكذلك في ترجمة الإمام علم الدين السخاوي المقرىء (٦٤٣) كما في ترجمة من كتاب «طبقات القراء الكبار»[٤].

أقول: وممن شهدناه على هذه الحال في القراءة عليه واستفتائه وهو يمشي شيخنا وشيخ مشايخنا العلامة عبدالعزيز بن باز (١٤٢٠) ـ رحمه الله تعالى ـ فقد كان ذلك ديدنه وهِجِّيْراه، بنفسٍ منشرحة ووجهٍ طَلِق، فجزاه الله عن العلم وأهله خيرًا.

* استوفى مكتبته قراءة، وفيها (٧٠٠) مجلد

ففي ترجمة أبي بكر بن أحمد تقي الدين ابن قاضي شُهبة[٥] من

---

(١) (ص/ ٧٧).
(٢) (ص/ ٥١).
(٣) (٣/ ١٠٩٤).
(٤) (٣/ ١١٠٥).
(٥) معروف كَسَلَفِه بابن قاضي شُهْبَة؛ لكون النجم والد جده أقامَ قاضيًا بشُهْبة السوداء أربعين سنة.

«الضوء اللامع»[١] قال: «وكتب بخطه الكثير، بحيث لو قال القائل: إنه كتب مئتي مجلد لم يتجاوز، وخطه فائق دقيق.

وبِيْع في تركته نحو سبع مئة مجلد، كاد أن يستوفيها مطالعة» اهـ.

* يقطع الليل جميعه في القراءة على السِّراج

● ذكر القاضي عياض في «ترتيب المدارك»[٢] في ترجمة الإمام الفقيه أبي محمد عبدالله بن إسحاق المعروف بابن التَّبَّان ت (٣٧١) أنه قال عن نَفْسِه: كنت أول ابتدائي أدرس الليل كلَّه، فكانت أُمي تنهاني عن القراءة بالليل، فكنت آخذ المصباح وأجعله تحت الجفنة وأتعمَّد النوم، فإذا رَقَدَتْ أخرجتُ المصباحَ وأقبلتُ على الدرس.

قال القاضي: وكان كثير الدرس، ذكر أنه دَرَسَ كتابًا ألفَ مرَّةٍ» اهـ.

● وذكر الوزير القِفْطي في «إنباه الرواة»[٣] في ترجمة أبي القاسم ابن أبي منصور النحوي الحلبي المعروف بابن الحَبْرَاني ت (٦٢٨) ـ وكان الوزير قد صَحِبَه وجالسَه ـ: «أنه كان شديد الاجتهاد في طلب الفوائد من صفحات الصُّحف؛ فلازمَ المطالعةَ ليلاً ونهارًا، وتلَزَّم الحفظَ لبعض ما يمرّ به في أثناء ذلك.

قال: ولقد حكى لي الشريف أبو هاشم بن أبي حامد... صديقي ـ رحمه الله ـ قال: أخبرني جارٌ له، قال: رأيتُ ابن الحَبْراني النحوي

---

(١) (١١/٢٣).
(٢) (١/٧٨).
(٣) (٤/١٦٥).

في زمن الصيف، يقوم في الليل الأخير في سطحه، وَيَقِدُ سراجًا في موضعٍ خالٍ من الهواء، ويقعد للمطالعة وقتًا طويلاً دائمًا في كلِّ ليلة، لا يشغَله الحرُّ ولا القَرُّ عن المطالعةِ والاستفادة» اهـ.

* الشغف بجمع الكتب ومعرفته بها

ذكر الحافظ ابن حجر في «الدرر الكامنة»[1] في ترجمة شافع بن علي الكناني ت (٧٣٠): «أنه كان يُحب جمع الكتب، حتى أنه لما مات ترك نحو العشرين[2] خزانة ملأى من الكتب النفيسة.

وكان من شدَّة حُبِّه للكتب؛ إذا لمس الكتابَ يقول: هذا الكتاب الفلاني، ملكتُه في الوقت الفلاني، وإذا طُلِبَ منه أيّ مجلَّد كان، قام إلى الخزانة فتناوله كأنه كما وضعه فيها». اهـ.

* التألُّم والحَسْرة على بيع الكتب

● قال ابن خلكان في ترجمة الشريف المرتضى أبي القاسم علي بن الطاهر ت (٤٣٦) في كتابه: «وفيات الأعيان»[3]: «حكى الخطيب أبو زكريا يحيى بن علي التِّبريزي اللغوي، أن أبا الحسن علي بن أحمد ابن علي بن سَلَّك الفالي الأديب، كانت له نسخة بكتاب «الجمهرة» لابن دُرَيْد في غاية الجَوْدَة، فدعته الحاجة إلى بيعها فباعها، واشتراها الشريف المرتضى أبو القاسم ـ المذكور ـ بستين دينارًا، وتصفَّحها فوجدَ بها أبياتًا بخط بائعها أبي الحسن الفالي، وهي:

---

(١) :(٢/ ١٨٤)، وترجمته مطوّلة في «أعيان العصر»: (٢/ ٥٠١ ـ ٥١٢).
(٢) في «الأعيان»: «ثماني عشرة».
(٣) (٤/ ١٦٥).

أنِسْتُ بها عِشرينَ حولاً وَبِعْتُها لقد طالَ وَجْدي بعدَها وحنيني
وما كان ظَنِّي أنَّني سأَبيعها ولو خلَّدتني في السجون ديوني
ولكن لضعفٍ وافتقارٍ وصِبْيَةٍ صِغارٍ عليهم تَسْتَهِلُّ شُؤوني
فقلتُ ولم أَمْلك سوابق عَبْرةٍ مقالة مكويِّ الفؤادِ حَزينِ:
«وقد تُخرجُ الحاجاتُ يا أمَّ مالكٍ كرائمَ من ربٍّ بهنَّ ضنينِ» اهـ

● وذكر السخاوي في «الضوء»[1] في ترجمة إبراهيم بن علي بن أحمد جمال الدين القَلْقَشندي القاهري أنه باع كتبَهُ أو جلَّها، قال: وقَاسَىٰ مالا يُعَبَّر عنه، وتألَّمنا له في ذلك!.

* صور من العصر الحديث *

بعد هذا التطواف في رحاب العلماء في قرون غابرة وأقطارٍ متباعدة، كأنِّي بقائل يقول: تلك أمة قد خلت، وجيل قد ذهب؛ فهل لك في أمثلة قريبة ونماذج حيّة؟

فنقول: نعم، وما أكثرها!

* فهذا الشيخ العلامة جمال الدين القاسمي الدمشقي (١٣٣٢) يقول عن نفسه وهو يتكلم على علوّ الهِمَّة في كتابه «الفضل المبين»[2]: «وقد اتفق لي بحمده تعالى قراءة «صحيح مسلم» بتمامه روايةً في

(١) (٣/٣١٦).
(٢) (ص/٥٣ ـ ٥٤)، وذكر القاسميُّ ـ أيضًا ـ هذه القراءة في كتابه «قواعد التحديث»: (ص/٢٦٣)، وكان تاريخ هذه القراءة في سنتي (١٣١٥، ١٣١٦).

أربعين يومًا، وقراءة «سنن ابن ماجه» كذلك في واحدٍ وعشرين يومًا، وقراءة «الموطَّأ» كذلك في تسعة عشر يومًا، وقراءة «تهذيب التهذيب»[١] مع تصحيح سهو القلم فيه وتَحْشيته في نحو عشرة أيام.

فدع عنك أيُّها اللائم الكسلَ، واحرص على عزيز وقتك بدرس العلم وإحسان العمل» اهـ.

وذكر فيه[٢] ـ أيضًا ـ أنه قرأ «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٥٧١)، وقد طبع هذا التاريخ الآن في سبعين مجلَّدًا[٣].

* وهذا الشيخ محمد بدر الدين الحسني (١٣٥٤) العلامة المحدِّث (حفظ الصحيحين غيبًا بأسانيدهما، ونحو «٢٠ ألف» بيت من المتون العلمية)[٤]، كان شديد التشاغل بالعلم والعكوف على طلبه والانقطاع إليه، حتى بلغ من ذلك شيئًا عظيمًا، قال الشيخ علي الطنطاوي[٥] ـ رحمه الله ـ «بل كان يجلس في الليل ليقرأ، فإذا غلبه النُّعاس اتكأ برأسه على وسائد أُعِدت له، فأغفى ساعتين أو ثلاثًا من الليل متقطعات، ومن النهار ساعة».

وقال: «كان يقرأ دائمًا لا يشغله عن القراءة إلا أن يكون نائمًا أو في صلاة أو درس، أو في طريقه من المسجد إلى البيت، ما فارق

---

(١) في «قواعد التحديث»: «تقريب التهذيب».
(٢) (ص/ ٣٦٣).
(٣) مع خرومٍ في أثنائه، لعلها تبلغ مجلدات، ثم طُبِعت هذه الخروم في عشرة مجلدات.
(٤) قاله عَصْرِيُّه الزِّركلي في «الأعلام»: (٧/ ١٥٨).
(٥) «رجال من التاريخ»: (ص/ ٣٨١ ـ ٣٨٢).

الكتبَ قطُّ، ولا استعان على النظر بنظارة، وقد مات حديد البصر صحيحه، وما أحبَّ في الدنيا غير الكتب. . . فكان يشتري الكتابَ يسمعُ به ولو كان مطبوعًا في أقصى الهند، ويشتري المخطوط ولو بوزنه ذهبًا، ولا يدع كتابًا حتى يقرأه، أو يتصفحه تصفّح المتثبِّت. . .».

* ومثالٌ حيٌّ كان بين أظهرنا لشهور مضت هو العلاَّمة الأديب البليغ صاحب القلم الأنيق والعبارة الرشيقة[١] الشيخ علي الطنطاوي (١٤٢٠) ـ رحمه الله تعالى ـ له مقال في «الذكريات»[٢] عنوانه «شغلي الدائم المطالعة» ذكر فيه ولعه الدائم بالمطالعة من صغره وهو في المدرسة الابتدائية بدون إرشاد مُرْشِد ولا تعليم مُعَلِّم ثم قال: «فأنا اليوم، وأنا بالأمس، كما كنت في الصغر، أُمضي يومي أكثره في الدار أقرأ، وربما مرّ عليَّ يوم أقرأ فيه ثلاثمئة صفحة، ومعدَّل قراءتي مئة صفحة من سنة (١٣٤٠) إلى هذه السنة (١٤٠٢).

اثنان وستون سنة. احسبوا كم يومًا فيها، واضربوها بمئة، تعرفوا كم صفحة قرأت. أقرأ في كل موضوع، حتى في الموضوعات العلمية. . .».

وله في «الذكريات»[٣] ـ أيضًا ـ حديث عن قراءته ومقدارها، مع اشتغاله بالقضاء في دمشق (كل يوم ثلاثون قضية) مع الإشراف على مجالس التحكيم، والعمل رئيسًا لثلاثة مجالس؛ الأوقاف، والأيتام، والمجلس الأعلى للكليّات الشرعية، مع إلقاء دروس في الكلية، والثانوية للبنين والبنات، وكان إلى جانب ذلك خطيب جمعة، ومحاضرًا

---

(١) أسلوبه الذي يكتب به لم يُقلِّد فيه أحدًا، بل قلده فيه مقلِّدون.
(٢) (١/١٥٩ ـ ١٦٥).
(٣) (٦/٢٦٧ ـ ٢٦٩).

في النوادي، وله أحاديث في الإذاعة، وكتابة يومية في إحدى الجرائد. كان يصنع هذا كله!!.

ومع ذلك كان يقرأ كل يومٍ مئتين أو ثلاثمئة صفحة، قال: «وأنا مستمر على ذلك من يوم تعلمتُ القراءة، وأنا صغير، أي: من نحو سبعين سنة إلا قليلاً، أصرف فضل وقتي كله في القراءة».

ولو ذهبتُ استقصي أخبارَ علماء هذا القرن المنصرم لجاء كتابًا برأسِه!! لكن حسبي هنا ما ذكرت، وكفى به عبرةً لمعْتَبِر، ومن أراد التوسُّع فليراجع تراجم أهل هذا القرن وهي كثيرة(١).

❊ ❊ ❊

---

(١) مثل: «المعاصرون» لمحمد كُرْدْ عَلي، و«نزهة الخواطر» المجلد الثامن، لعبدالحي الحسني، و«الأعلام» للزركلي تراجم المتأخرين، و«ذيول الأعلام»، و«علماء ومفكرون عرفتهم» للمَجْذوب.

الفصل الثالث
في قراءة المطوّلات في مجالسَ معدودات

كان من عادة العلماء عَقْد مجالس لقراءة المطوّلات على اختلاف الفنون (خاصة كتب الحديث المسندة)، فكان الناسُ يأخذونها عن مؤلِّفيها أو عمن اتصلت بهم روايتها، بالسَّماع لجميعها تارة، أو بسماع شيءٍ منها، والإجازه بباقيها، أو بالإجازة لجميعها، وتناقصَ عقدُ تلك المجالسِ وإسماع المطوّلات طردًا مع تأخُّر الزمن (لعوامل كثيرة) وانْحَسَرَت نوعية الكتب المقروءة في كتب الحديث، خاصَّة المشهورة منها، أو لكتب بعض مشاهير المؤلِّفين.

وهذه المجالس قد تطُوْل وقد تَقْصُر بحسب الغرض من القراءة وتفرُّغ الشيخ، واستعداد الطالب، وموضوع الكتاب[1].

ولاشك أن قراءة هذه المطوّلات في مجالسَ معدودة يتطلَّب عددًا من الصفات في الشيخ والطالب، من الخبرة بالكتاب المقروء، وشدة التيَقُّظ، وفصاحة اللسان، وسرعة القراءة، وقبل ذلك وبعده = الرغبة الأكيدة،

---

(١) ففي «ثبت الفُلَّاني»: (ص/ ١٩) أنهم قرأوا «الموطأ» باستحضارِ ومراجعةِ المنتقى، والاستذكار، والقَبَس، وشرح الزرقاني، وغيرها، وفيه: (ص/ ٣٥) أنهم قرأوا «البخاري» باستحضارِ ومراجعةِ فتح الباري، وشرح ابن بطَّال، وشرح الكرماني، والمشارق، وإرشاد الساري وغيرها.

والهمة العالية، والصبر الجميل. فمن تحلّى بذلك كلّه؛ لانَ له الحديدُ وسَهُل عليه الصعبُ، «فإن العزيمةَ والمحبةَ تُذْهِبُ المشقةَ، وتُطِيبُ السيرَ»[(١)].

وهذا سَرْد ما وقفنا عليه من ذلك:

* الخطيب البغدادي (٤٦٣) *

ـ قراءة صحيح البخاري في ثلاثة مجالس.

قال الخطيب في «تاريخ بغداد»[(٢)] في ترجمة إسماعيل بن أحمد ابن عبدالله الضرير الحِيْري ت (٤٣٠) أنه خاطبه «في قراءة كتاب «الصحيح» ـ وكان سَمِعَه من الكُشْمِيْهَني[(٣)] عن الفِرَبْري[(٤)] ـ فأجابني إلى ذلك؛ فقرأتُ جميعَه عليه في ثلاثة مجالس، اثنان منها في ليلتين، كنتُ ابتدىء بالقراءة وقتَ صلاةِ المغرب، وأقطعها عند صلاة الفجر.

وقبل أن أقرأ المجلس الثالث عَبَر الشيخُ إلى الجانب الشرقي مع القافلة ونزلَ الجزيرةَ بسوقِ يحيى، فمضيتُ إليه مع طائفةٍ من أصحابِنا ـ كانوا حضروا قراءتي عليه في الليلتين الماضيتين ـ وقرأتُ عليه في الجزيرة من ضَحْوَةِ النهار إلى المغرب، ثم من المغرب إلى وقتِ طلوع الفجر، ففرغتُ من الكتاب، ورحلَ[(٥)] الشيخُ في صبيحة تلك

---

(١) العبارة بين القوسين لابن القيم في «الفوائد»: (ص/ ٢٥٥).

(٢) (٦/ ٣١٤).

(٣) «كُشْمَيْهَن» إحدى قرى مَرْو، ضبطها في «الأنساب»: (٥/ ٧٥) ـ بكسر الميم ـ، وفي «معجم البلدان»: (٤/ ٤٦٣) لياقوت: بفتح الميم.

(٤) راوية البخاري، وفاؤه فيها الوجهان الفتح والكسر.

(٥) وكان مرتحلاً من نَيْسابور إلى مكة، مصطحبًا معه كتبه ـ وكانت وقر بعير ـ.

الليلة مع القافلة» اهـ.

أقول: فلله تلك الهمم ما أسمقها وأعلاها! فهل سمعتَ بمثل هذه الهمم والعزائم؟! فاليومُ الثالث جميعُه في القراءة (من ضحوةٍ إلى المغرب، ومن المغرب إلى الفجر)، فبمثل هذه الهمة بلغ الخطيب إلى ما بلغ، حتى دُعي بـ«حافظ المشرق»، وصار بمثل هذه الهمة عمدة المحدثين ومعوّلهم، بل صاروا عِيالاً على كتبه كما قال ابنُ نقطة[1].

ـ ما قيل حول هذه القصة.

قال الحافظ الذهبي في «السِّير»[2] ـ معلِّقًا ـ: «قلت: هذه والله القراءةُ التي لم يُسْمَع قطّ بأسْرَعَ منها».

وقال ـ أيضًا ـ في «تاريخ الإسلام»[3]: «وهذا شيءٌ لا أعلمُ أحدًا في زماننا يَسْتَطيعُه».

وفي «الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر»[4] للسخاوي، أنه سأل شيخه ـ أي ابن حجر ـ «هل وقعَ لكم استيفاءُ يومٍ في القراءة؟ (يعني: مثل ما وقع للخطيب) فقال: لا؛ ولكن قراءتي «الصحيح» في عشرة مجالس لو كانت متواليةً لنقصت عن هذه الأيام، ولكن أين الثريّا من الثرى، فإنّ الخطيب ـ رحمه الله ـ قراءته في غايةٍ

---

(١) «التقييد لرواة السنن والمسانيد»: (١/ ١٧٠).

(٢) (١٨/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠).

(٣) وَفَيَات (٤٦٣)، (ص/ ٩٩).

(٤) (١/ ١٠٤).

من الصِّحة والجَوْدة والإفادة وإبلاغ السَّامعين» اهـ.

وسيأتي استيفاء ما وقع للحافظ ابن حجر من ذلك، وهو عجيب!.

ـ قراءة «صحيح البخاري» في خمسة أيام.

قال الذهبي في «تذكرة الحفاظ»[1] نقلاً عن أبي سعدٍ السمعاني: «كان الخطيب ـ حجَّة حسن الخط، كثير الضبط، فصيحًا، خُتِمَ به الحفَّاظ، وقرأ بمكة على كريمة[2] «الصحيحَ» في خمسة أيامٍ» اهـ.

* عبدالله بن سعيد بن لُبَّاج الأموي (٤٣٦) *

ـ إقراء مسلم في أُسبوع.

جاور ابنُ لُبَّاج بمكةَ سنين طويلة، واختصَّ بصحبة أبي ذر عَبْد ابن أحمد الهروي ـ راوي الصحيح ـ وأكثر عنه، ثم رجعَ إلى الأندلس، قال ابن بَشْكُوَال في «الصِّلَة»[3]: «ولحق بقرطبة... سنة ثلاثٍ وثلاثين وأربع مئة، فقرىء عليه «مسندُ مسلم بنِ الحجاجِ الصحيحُ» في نحو جُمعة، بجامع قرطبة في موعِدَين طويلَيْن حَفِيلَين، كل يوم موعد غدوة، وموعد عَشيَّة» اهـ.

---

(١) (٣/ ١١٣٨)، و«تاريخ الإسلام»: وفيات (٤٦٣)، (ص/ ٩٢)، و«الوافي بالوَفَيَات»: (٧/ ١٩٢).

(٢) هي: كريمة بنت أحمد المروزيَّة ت (٤٦٣) ـ وهي سنة موت الخطيب ـ، سمعت «صحيح البخاري» من الكُشْمِيْهنيِّ، وكانت عالمةً فاضلةً مُتَثَبِّتَةً، بلغ عمرها مئة سنة، ماتت ولم تتزوَّج. انظر: «المنتظم»: (١٦/ ١٣٥ ـ ١٣٦)، و«السِّير»: (١٨/ ٢٣٣ ـ ٢٣٥).

(٣) (١/ ٢٦٥).

* المؤْتَمن السَّاجي (٥٠٧) *

ـ قراءة «المحدِّث الفاصل» في مجلس.

قال الذهبي في «السير»[١]: «قال السِّلَفيّ: كان المؤتمنُ لا تُمَلُّ قراءتُه، قرأ لنا على ابن الطيوري كتابَ «الفاصل»[٢] للرَّامَهرمزي في مجلسٍ.

* طلحة بن مظفَّر العَلْثي[٣] الحنبلي (٥٩٣) *

ـ قراءة «صحيح مسلم» في ثلاثة مجالس.

جاء في ترجمته في «الذيل على طبقات الحنابلة»[٤]، و«طبقات المفسرين»[٥]: أنه قرأ ـ «صحيحَ مسلم» في ثلاثةِ مجالس.

وكان طلحةُ بن مظفَّر عالمًا متفنِّنًا في علومٍ كثيرة زاهدًا وَرِعًا، وصَفَه الحافظ المنذري بحُسْن القراءة وفصاحتها، فمن ذلك أنه كان يقرأ كتاب «الجمهرة» لابن دُرَيْد على ابن القصَّار، فمِنْ سرعة قراءته وفصاحتها قال ابنُ القصَّار: هذا طلحةُ يحفظ هذا الكتاب؟! قالوا: لا.

---

(١) (١٩/ ٣١٠).
(٢) اسمه: «المحدِّث الفاصل بين الراوي والواعي» للرَّامَهُرْمُزِي (نحو ٣٦٠)، طبع بتحقيق محمد عجاج الخطيب في (٤٦٥) صفحة، وهو أول كتاب مفرد في علوم الحديث.
(٣) بفتح المهملة وسكون اللام، قيَّده المنذري في «التكْمِلة لوفيات النقلَة»: (١/ ٢٩٥)، وعنه ابنُ رجب.
(٤) (١/ ٣٩٠).
(٥) (١/ ٢٦٦).

* العِزُّ بن عبدالسلام (٦٦٠) *

ـ قراءة «نِهاية المَطْلَب»(١) في ثلاثة أيام.

قال ابن فَهْد في «لحظ الألحاظ»(٢): «قال شيخنا الحافظُ برهانُ الدين (أي: الحلبي ٨٤١): وحُكيَ لي أن الشيخ عز الدين بن عبدالسلام كان يخرج إلى المسجد يوم الأربعاء ومعه «نهاية إمام الحرمين»، فيمكث بالمسجد يوم الأربعاء ويوم الخميس ويوم الجمعة إلى قُبيل الصلاة، فينظر في هذا الوقت «النهايةَ».

فٱسْتَبْعَد هذا بعضُ العلماء؛ «فقال الشيخ سِراج الدين البُلقيني: ولا استبعد؛ لأن الشيخ عز الدين لا يُشْكِل عليه منها شيءٌ، ولا يحتاج إلى أن يتأمَّل منها إلا شيئًا قليلاً، أو ما هذا معناه...» اهـ.

---

(١) «نِهاية المطلب في دِراية المذهب» في فقه الشافعيَّة لإمام الحرمين الجويني (٤٧٨)، قال ابن خلكان في «الوفيات»: (٣/١٦٨): «لم يؤلَّف في الإسلام مثله»، ومثله قال عبدالغفّار الفارسي في «السِّياق لتاريخ نَيْسابور» نقله التاج السبكي في «طبقاته»: (٥/١٧٧ ـ ١٧٨) ولم أجده في مخطوطة «السياق»: (ق/٤٨ب) في ترجمة الجويني. واعتدل! السُّبكيُّ فقال: «لم يُصنَّف في المذهبِ مثلُها فيما أجزمُ به» اهـ «الطبقات»: (٥/١٧١).
وهو كتاب كبير، ذكر في «كشف الظنون»: (ص/١٩٩٠) عن ابن النجار: أنه يكون في أربعين مجلدًا، (وقيل: أقل من ذلك، ولعل الاختلاف من أجل تفاوت النُّسَّاخ). ومختصره في سبعة، لابن أبي عَصْرون اليمني (٥٨٥).
وقد أخذ الأستاذ عبدالعظيم الديب (وهو خبير بالجويني) على عاتقه مؤنَةَ إخراج هذا الكتاب، وذلك من نحو عقدين من الزمان! ولمَّا يظهر إلى يومنا هذا!!.

(٢) (ص/٢٠١).

* ابن الأبَّار (٦٥٨) *

ـ قراءة «مسلم» في ستة أيام.

ذكر الذهبي في «سير أعلام النبلاء»[(١)] في ترجمة المحدِّث المعمَّر أبي محمد عبدالله بن محمد الحَجْري الأندلسي ت (٥٩١) أن الحافظ أبا عبدالله بن الأبَّار[(٢)] ت (٦٥٨) قرأ عليه «صحيحَ مسلم» في ستة أيام.

* شيخ الإسلام ابن تيميَّة (٧٢٨) *

ـ قراءة «الغَيْلانيات»[(٣)] في مجلسٍ واحد.

قال تلميذه الحافظ ابن عبدالهادي (٧٤٤) في «مختصر طبقات علماء الحديث»[(٤)] ـ وهو يُعدِّد مسموعات ومقروءات شيخه ـ: «وقرأ بنفسه الكثير، ولازم السماعَ مُدَّةَ سِنين، وقرأ «الغَيْلانيات» في مجلسٍ» اهـ.

وقد وصف ابنُ عبدالهادي شيخَ الإسلام ابن تيميَّة بصفاتٍ تدل على ما بلغه هذا الإمام من محبة العلم والانكباب على تحصيله فقال:

---

(١) (٢١/ ٢٥٣).

(٢) ترجمته في «عنوان الدراية»: (ص/ ٣٠٩) للغبريني، و«السير»: (٢٣/ ٣٣٦).

(٣) «الغيلانيات» هي تلك الأجزاء الأحد عشر، المسموعة لأبي طالب محمد بن محمد بن إبراهيم بن غَيْلان (٤٤٠) من حديث أبي بكر محمد بن عبدالله بن إبراهيم الشافعي (٣٥٤) تخريج الحافظ أبي الحسن الدارقطني (٣٨٥)، وهي من أجود الأحاديث وأعلاها، وعدد أحاديثها نحو ألف ومئتي حديث.
وقد طُبعت «الغيلانيات» ثلاث طبعات مختلفة! خِلال سنتين!! أجودها طبعة دار ابن الجوزي.

(٤) (٤/ ٢٨١ ـ ٢٨٢)، و«الجامع لسيرة شيخ الإسلام»: (ص/ ١٨٨) لكاتبه بالاشتراك مع عُزَير شمس.

«لا تكادُ نفسُه تشبَعُ من العِلم، ولا تَرْوى من المطالعة، ولا تَمَلُّ من الاشْتِغال، ولا تكلُّ من البحث» اهـ.

وتقدم شيءٌ من خبره، رحم الله الجميع رحمة واسعة وأسكنهم فسيح جنَّاته.

* الحافظ المِزِّي (٧٤٢) *

- وهذا الحافظ أبو الحجاج المِزي يقرأ «المعجم الكبير» للطبراني بحضور الحافظ البرزالي في ستين مجلسًا[1].

* الحافظ شمس الدين الذهبي (٧٤٨) *

- قراءة «سيرة ابن هشام» في (٦) أيام.

ذكر الإمام الذهبي عن نفسه[2]: أنه قرأ «سيرة ابن هشام» على أبي المعالي الأبَرْقوهي[3] في ستةِ أيامٍ فقط.

* سراج الدين ابن الملقِّن (٨٠٤) *

- قراءة المجلدين في الأحكام في يومٍ واحد.

وفي «لحظ الألحاظ» بعد - حكاية العزّ ابن عبدالسلام المتقدمة - قال البرهان الحلبي: فذكرتُ هذه الحِكاية لشيخنا سراج الدين ابنُ الملقِّن، فقال لي عقيب ذلك: أنا نظرتُ مجلَّدين من «الأحكام»[4]

---

(١) انظر «معجم سماعات البرزالي»: (ق/ ٢٣٢ أ) نسخة الظاهرية بخط البرزالي.

(٢) في «تاريخ الإسلام»: (ق/ ١٣٥) نقلاً عن «الذهبي ومنهجه في تاريخ الإسلام»: (ص/ ٩٤) للدكتور بشار عوَّاد.

(٣) ترجمته في «معجم الشيوخ»: (١/ ٣٧) للذهبي، و«أعيان العصر»: (١/ ١٧١)، وغيرها.

(٤) كتاب في الحديث، قال السبكي في «طبقاته»: (٨/ ١٩): «الكتاب المشهور =

للمحبِّ الطبري في يومٍ واحدٍ» اهـ.

* سراج الدين البُلْقيني (٨٠٥) *

ـ قراءة المجلد من كتب الفقه في يومٍ.

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في كتابه «المجْمَع المؤسِّس»[(١)] نقلاً عن البرهان الحلبي أنه قال: سمعتُه يقول ـ أي: البُلقيني ـ ربما طالعتُ المجلَّد كاملاً في اليوم الواحد من كتب الفقه.

* الحافظ زين الدين العِراقي (٨٠٦) *

ـ قراءة «مسلم» في ستةِ مجالس.

قال الحافظ تقي الدين الفاسي في «ذيل التقييد»[(٢)]: «وسمع ـ أي العراقي ـ «صحيحَ مسلم» بقراءته[(٣)] في سِتة مجالس على محمد بن إسماعيل بن الخبَّاز بدمشق».

ونحوه في «لحظ الألحاظ»[(٤)] لابن فهد، وزاد: «في ستة مجالس متوالية، قرأ في آخر مجلسٍ منها أكثر من ثلث الكتاب، وذلك بحضور الحافظ زين الدين ابن رَجَب[(٥)]، وهو معارض بنسخته» اهـ.

= المبسوط، دلَّ على فضلٍ كبير» اهـ.

(١) (٢/ ٢٩٧)، و«لحظ الألحاظ»: (ص/ ٢٠٢) متَّصِل بخبر العِزّ بن عبدالسلام السَّالف.

(٢) (٣/ ٩)، (١/ ١٧٠).

(٣) أي: العِراقي نفسه.

(٤) (ص/ ٢٢٣).

(٥) وكان سِنُّ الحافظ ابن رجب آنذاك دون العشرين؛ لأنه مولود سنة (٧٣٦)، =

وابنُ الخبَّاز (٧٥٦) هذا قال الحافظ ابن حجر في «الدرر الكامنة»[(١)] نقلاً عن العِراقي قال: إنه كان مُسْنِد الآفاق في زمانه، وتفرَّد برواية مسلم بالسماع المتصل. . . وكان صبورًا على السَّماع، يتكسَّب بالنسج، قال: فكنَّا نقرأ عليه وهو يعمل في منزله من بُكرةٍ إلى العصر.

ـ قراءة «المسند» في ثلاثين مجلسًا.

جاءَ ـ أيضًا ـ في «ذيل التقييد»[(٢)] أن الحافظ العراقي قرأ «مسند الإمام أحمد» على ابن الخبَّاز ـ المتقدِّم ـ في ثلاثين مِيْعَادًا.

* مجد الدين الفيروزآبادي (٨١٧) *

ـ قراءة «مسلم» في أربعة عشر مجلسًا.

قال السخاوي في «الضوء اللامع»[(٣)] في ترجمة مجد الدين: «وقرأ «مسلمًا» على البياني بالمسجد الأقصى في أربعة عشر مجلسًا».

ـ قراءة «مسلم» في ثلاثة أيام.

ذكر السخاوي في «الضوء اللامع»[(٤)]، و«الجواهر والدرر»[(٥)]،

= وتوفي ابن الخباز سنة (٧٥٦) فيكون عمر ابن رجب حين وفاته عشرين سنة، ولاشك أن القراءة كانت قبل ذلك.

(١) (٣/ ٣٨٤).
(٢) (٣/ ٩)، (١/ ١٧٠).
(٣) (١٠/ ٨٠).
(٤) (١٠/ ٨٠).
(٥) (١/ ١٠٣ ـ ١٠٤).

والمَقَّري في «أزهار الرياض»[١] أن الفيروزآبادي قرأ «صحيحَ مسلم» بدمشق بين بابَي النَّصْر والفَرَج، تُجَاه نَعْل[٢] النبي ﷺ على شيخه ناصر الدين أبي عبدالله محمد بن جَهْبَل[٣]، في ثلاثة أيامٍ، وقال ذاكرًا ذاك مُفْتخرًا به:

قرأتُ بحمدِ اللهِ «جامعَ مسلمٍ» بجوفِ دمشقَ الشامِ جوفَ الإسلامِ

على ناصرِ الدين الإمامِ ابنِ جَهْبَلٍ بحضرةِ حُفَّاظٍ مشاهيرَ أعلامِ

وتــمَّ بتــوفيــقِ الإلـٰــهِ بفضْلِــهِ قراءةَ ضبطٍ في ثلاثةِ أيَّامِ[٤]

وقال المَقَّري عن هذه القراءة السَّريعة مع الضبط: «[إنها] من أغرب ما منحَ الله تعالى المجدَ مؤلف «القاموس»!... فسُبحانَ المانح الذي يؤتي فضله من يشاء!».

واعتبر السخاوي أن ما وقع لشيخه الحافظِ ابن حجر من قراءة «صحيح مسلم» في أربعة أيام سوى مجلس الختم أَجَلّ مما وقع

---

(١) (٣/٤٨).

(٢) تحرَّفت في «أزهار الرياض» إلى: «بَغْل»! ولأبي اليُمن بن عساكر جُزء في صِفَة النعل النبوية، وأنشأ قصيدة فيه حين شاهدها، انظر: «مِلء العَيْبة»: (٥/٢١٨ ـ ٢١٩) لابن رُشيد، و«فتح المتعال في صفة النِّعال» للمقَّري، و«التبرُّك»: (ص/٣٥٢) للجديع في ثبوت النعل ونحوها.

(٣) المتوفي سنة (٧٦٤)، له ترجمة في «ذيل التقييد»: (١/١٧٧)، و«الدرر الكامنة»: (٣/٣٩٢). وتحرَّفت «ابن جَهْبل» في «الجواهر والدرر» إلى: «ابن جهيل» ـ بالياء ـ.

(٤) هذه الأبيات الثلاثة جعلها محقِّقو «الجواهر ـ بطبعتيه» نثرًا، ولم يتفطنوا لكونها شِعرًا!! وهي مخالفة لما هنا في بعض العبارات.

للفيروزآبادي. وسيأتي استيفاء ذلك عند الكلام على الحافظ ابن حجر ومقروءاته.

* الحافظ ابن حَجَر العسقلاني (٨٥٢) *

وما وقع للحافظ ـ رحمه الله ـ من ذلك عجيب! وهو يدلّ على همة عاليه، وجَلَد غير معهود، وتفرُّغ تام، يحف ذلك تيسير إلـهي، وتوفيق ربّاني.

وقد وصف تقيُّ الدين الفاسي ـ صاحبُ ابنِ حجر ورفيقُه ـ قراءَتَه بأنها سريعة[١]، وكذا وصفها السخاوي بالسرعة والحُسْن[٢]، وشبَّهها بقراءة الخطيب.

ـ قراءة «المسند» في ثلاثةٍ وخمسين مجلسًا.

قال الحافظ في كتابه: «المَجْمَع المؤسِّس للمُعْجم المُفَهْرِس»[٣] في ترجمة شيخه عبدِالله بن عمر بن علي الهندي أبيَ المعالي ت (٨٠٧): «وكان صبورًا على إسماع الحديث، لا يمل ولا ينعس ولا يتضجَّر[٤]...

---

(١) «ذيل التقييد»: (٢/ ١١٩)، ووقعت هذه اللفظة «سريع» في «عُنوان الزَّمان في تراجم الشيوخ والأقران»: (ق/ ٢٣ أ ـ كوبريلي) للبقاعي: «بديع القراءة»، وهو ينقل عن الفاسيِّ، فلا أظن ذلك إلا تصحيفًا.

(٢) «الجواهر والدرر»: (١/ ١٠٣ ـ ١٠٥).

(٣) (٢/ ٢٧، ٣٢).

(٤) ذكر الحافظ في ترجمته أنه مرض مرة، قال: «فصعدنا إلى غرفته عائدين، فأذنَ لنا في القراءة؛ فقرأتُ عليه من «المسند» فمرَّ في الحال حديث أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ في رُقية جبريل، فوضعتُ يدي عليه في حالِ القراءةِ =

قرأتُ عليه «مُسْند أحمد» جميعه بزياداته[1]... وكَمُلت قراءتي عليه للمسند كله في ثلاثةٍ وخمسين مجلسًا» اهـ.

وقال في «إنباء الغمر»[2]: «قرأتُ عليه «مسند أحمد» في مدةٍ يسيرة في مجالسَ طوال، وكان لا يضجر... وفي الجملة؛ لم يكن في شيوخ الرواية من شيوخنا أحسن أداءً ولا أصْغَى للحديث منه» اهـ.

ـ قراءة «البخاري» في عشرة مجالس.

قال السخاوي في «الجواهر والدرر»[3]: «ومن الكتب الكِبار التي قرأها في مدةٍ لطيفة: «صحيح البخاري»، حدَّثَ به الجماعةَ من لفظه بالخانِقاه البيبرسية في عشرة مجالس، كل مجلسٍ منها أربع ساعات» اهـ.

وذلك بعد سنة (٨٢٠).

ثم سأل السخاويُّ شيخَه: هل وقع له استيفاء يوم كاملٍ في القراءة، كما وقع للخطيب؟ فقال: لا، ولكن قراءتي «الصحيح» في عشرة مجالس، لو كانت متوالية لنَقَصت عن هذه الأيام، ولكن أين الثُّريا من الثَّرىٰ؟! فإن الخطيبَ ـ رحمه الله ـ قراءته في غاية من الصحة والجودة والإفادة وإبلاغ السامعين. انتهى كلام الحافظ.

= ونويتُ رُقيته، فاتفقَ أنه شُفِي، حتى نزلَ إلينا في الميعاد الثاني مُعَافىٰ» اهـ. «المجمع»: (٢/ ٢٨).

أقول: فتامَّل ـ رحمك الله ـ في احتمال الشيخ وتجلُّدِه، وحِرص التلميذ وفِطْنته، وتوفيق الله وعنايته.

(١) أي: زيادات ابنه عبدالله، وقد طبعت مستقلة عن «المسند» في مجلد.

(٢) (٥/ ٢٤١).

(٣) (١/ ١٠٤).

قال السخاوي: إنما استدركَ ـ رحمه الله ـ جَرْيًا على عادتنا في التأدُّب وتواضُعًا، وإلا فقراءته ـ أيضًا ـ كانت كذلك، وهكذا كان دأبه: هَضْم نفسِه على جاري عادة أهل العلمِ والدين[١].

ـ قراءة «مسلم» في خمسة مجالس.

قال الحافظ في «المجمع المؤسِّس»[٢] في ترجمة محمد بن محمد ابن عبداللطيف بن الكُوَيْك ت (٨٢١): «وقرأتُ عليه «صحيحَ مسلم» في خمسة مجالس» اهـ.

وقال في «إنباء الغمر»[٣]: «وقرأتُ عليه كثيرًا من المرويَّات بالإجازة والسماع؛ من ذلك «صحيح مسلم» في أربعة مجالس سِوى مجلس الخَتْم» اهـ.

وفَصَّل السخاوي صِفة القراءة ووقتها فقال[٤]: «وقرأ «صحيح مسلم»... في أربعة مجالس سِوى مجلس الخَتْم[٥]، وذلك في نحو

---

(١) ثم ذكر حادثة تدلُّ على ما ذكر، فلتراجع.
(٢) (٢/٤٧٨)، وانظر: «ذيل التقييد»: (٢/١١٩)، و«عنوان الزمان»: (ق/٢٣ أ ـ كوبريلي) للبقاعي.
(٣) (٧/٣٤٢).
(٤) «الجواهر والدرر»: (١/١٠٣).
(٥) لطيفة: ذكر السخاوي ـ في الكتاب المتقدَّم ـ لطيفةً وقعت يوم الختم ـ ملخَّصها ـ: أن الضابط للقراءة التمس من الحافظ ابن حجر ـ وهو القارىء ـ أن يُعِيد بعض القراءة من أول الكتاب (لعله لِفَوْت وقع لبعضهم) فأجابه وشرع في القراءة. فكلما رام الوقوف؛ يقول له الضابط: وأيضًا... وهو يقرأ ـ وقد تعب ـ إلى أن مرَّ بقوله في الحديث: «والله لا أزيد على هذا ولا أنقص»، =

يومَيْن وشيء، فإنه كان الجلوس من بُكْرة النهار إلى الظهر...»، وكان سنة (٨١٣).

وعلى هذا الحِسَاب اعتبر السخاوي أن ما وقع لشيخه ابن حجر أجلّ مما وقع للفيروزآبادي من قراءة «صحيح مسلم» في ثلاثة أيام على ابن جَهْبَل[١].

ـ قراءة «السنن الكبرى» للنسائي في عشرة مجالس.

قال السخاوي في «الجواهر»[٢]: «وكذا قرأ كتاب النسائي الكبير على الشَّرَف (ابن الكُوَيك) المذكور في عشرة مجالس، كلُّ مجلسٍ منها نحو أربع ساعات، وسمعه بقراءته الفضلاء والأئمة... وانتهى في يومِ عاشوراء سنة أربع عشرة وثمان مئة» اهـ.

ـ قراءة «السنن» لابن ماجه في أربعة مجالس.

قال السخاوي في «الجواهر»[٣] ـ أيضًا ـ: «[و] قد قرأ «السنن» لابن ماجه في أربعة مجالس» اهـ.

ـ قراءة «المعجم الصغير» للطبراني في مجلس واحد.

قال الحافظ في «المجمع المؤسِّس»[٤] في ترجمة عمر بن محمد

= فاهتبلها وأغلق الكتاب وأقسم ـ أيضًا ـ ألا يزيد على هذا ولا ينقص.

(١) انظر ما تقدم ص/٧٨ ـ ٧٩.

(٢) (١/١٠٤).

(٣) (١/١٠٣).

(٤) (٢/ ٣٢٤)، وانظر: «ذيل التقييد»: (٢/ ١١٩)، و«لحظ الألحاظ»: (ص/ ٣٣٦).

ابن أحمد البالِسِي ثم الصالحي ت (٨٠٣): «قرأتُ عليه الكثير... فمما قرأتُ عليه «المعجم الصغير» للطبراني، قرأته عليه في مجلسٍ واحدٍ بين الظهر والعصر» اهـ.

وعدَّ السخاويُّ[1] وابنُ فهدٍ هذه القراءة أسرعَ شيءٍ وقع للحافظ ابنِ حجر، ذلك أن هذا الكتاب يشتمل على نحوٍ من ألف وخمس مئة حديث؛ لأنه ـ أي الطبراني ـ خرَّج فيه عن ألف شيخٍ، عن كل شيخٍ حديثًا أو حديثين[2].

---

(١) «الجواهر والدرر»: (١/ ١٠٤).

(٢) إلا أن هذه المنحة الإلـٰهية لم تَرُقْ لزاهد الكوثري ت (١٣٧١)، فعدَّها محنةً وذمًّا! ولم يكتفِ بذلك؛ بل اتخذها سبيلاً للقدح في علوم الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ!! وهذا من فَرْط تعصُّبه.

كضَرَائِرِ الحسناءِ قُلْنَ لوجهِها حَسَدًا وبُغْضًا: إنَّه لَذَميمُ

فلو كان القارىء أو المقروء له تعلُّق بمذهبِ أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ؛ لعدَّه من الكرامات التي يُتَبَجَّحُ بها في المحافل والكتب!!.

ولا يستغرب هذا الطعن عليه ـ أيضًا ـ؛ لأنه طعن عليه بما هو أعظم من هذا، بل بما تقشعرُّ منه جلود المؤمنين!! عامله الله بما يستحق.

لا يضر البحر أمسى زاخرًا أنْ رَمَى فيه سَفِيهٌ بحجر

وانظر ما أجاب به الأستاذ عبدالستار الشيخ بخصوص هذه القضية في كتابه: «الحافظ ابن حجر العسقلاني أمير المؤمنين في الحديث»: (ص/ ٢٨٩ ـ ٢٩٠ الحاشية).

ولقد أتعبَ هذا الرجلُ العلماءَ بتتبُّع مخازِيْه، ونقض شُبهاته ومباغِيْه، فجزاهم الله عن الإسلام خيرًا، وأربَىٰ هذه الكتب: «كتاب التنكيل» للعلامة عبدالرحمن بن يحيى المعلمي اليماني ت (١٣٨٦) ـ رحمه الله ـ؛ فما هو إلا أن رأى «طليعته» حتى شَرِقَ به.

* فخرَّ صَريعًا لليدين وللفَمِ * =

وكانت هذه القراءة في رحلته الشامية.

ـ قراءة ألف جزءٍ حديثي، وكتابة (١٠) مجلدات في مئة يوم.

قال البرهان البِقاعي في «عنوان الزمان في تراجم الشيوخ والأقران»[(١)]: «سمعتُ شيخَنا صاحبَ الترجمة (أي: الحافظ ابن حجر) غيرَ مرَّة يقول: إنه أقام في دمشق إذ ذاك (أي: في رحلته الشامية)[(٢)] مئة يوم؛ فسمعَ بها نحو ألفَ جزءٍ[(٣)] حديثي، لو جُلِّدت لكانت تقارب مئة مجلد، وكتب فيها عشر مجلدات، منها: «[أطراف][(٤)] المختارة».

قلت (البقاعي): هذا مع قضاءِ أشغاله، والتنقُّل في أحواله. وكتابةٍ بيِّنة وتطبيق[(٥)] ما طبقه من الأجزاء، وهذه كرامة لاشكَّ فيها، فالله تعالى

= فكيف لو رآه بكامله؟! ولقد رآه أتباعُه من بَعْده، فما حاروا جوابًا!!.

(١) (ق/ ٢٠ أ ـ كوبريلي).

(٢) كان دخوله الشام في (٢١/ رمضان/ ٨٠٢) وخروجه منها في: (١/ محرم/ ٨٠٣) فكانت مدة إقامته بها مئة يوم. ووقع في «الجواهر» في تاريخ دخوله الشام: «حادي عشر»! وهو خطأ صوابه: «حادي عِشْري» فلو صح ما هو مثبت؛ لكانت مُدَّة بقائه بها مئة يوم وعشرة أيام، وهذا خلاف المنصوص عليه.

(٣) قال الذهبي في «السير»: (٢٠/ ٥٥٨): «والجزء عشرون ورقة» اهـ. وقد يكون أقل أو أكثر، وانظر: «توثيقُ النصوصِ وضبطُها»: (ص/ ٢٢٩).

(٤) تحرَّفت في النسخة الخطية إلى: «بطريق»! و«المختارة» لضياء الدين المقدسي ت (٦٤٣). وهذا الكتاب الذي ألفه الحافظ غَرِق مع ما غَرِق من كتبه التي بخطه في رحلته الثانية إلى اليمن سنة (٨٠٦)، وكان مما غرق فيها: «أطرف المزي» و«أطراف مسند أحمد»، و«أطراف المختارة»، وترتيب مسندي عبد بن حميد والطيالسي. انظر: «الجواهر والدرر»: (١/ ٩٠).

(٥) لعل المقصود: كتابة الطِباق.

ينفعنا به آمين» اهـ.

وذكر السخاوي في «الجواهر والدرر»[١] خبرَ هذه الرِّحلة، وما وقعَ له فيها من قراءةٍ للكتب في أقصرِ مدَّة، ثم قال: «فمن هذه الكتب ما يكون مجلَّدةً ضخمة، ومنها ما يكون مجلَّدةً لطيفة، فتكون نحو الثلاثين مجلدًا ضخمة، تكون نحو أربع مئة وخمسين جزءًا حديثيّة، خارجًا عن الأجزاء الحديثية، وهي تزيد على هذا القَدْر.

هذا وقد علَّق ـ رضي الله عنه ـ في غضون هذه المدة بخطه؛ من الأجزاء الحديثية، والفوائد النثرية، والسماعات التي يُلحقها في تصانيفه، ونحوها: ثمان مجلدات فأكثر، وأطراف كتاب «المختارة» للحافظ ضياء الدين محمد بن عبدالواحد المقدسي في مجلد ضخمٍ، لو لم يكن له عَمَلٌ في طول هذه المدَّة إلا هي؛ لكانت كافية في جلالته» اهـ.

* الحافظ الدِّيَمِي (٩٠٨) *

ـ قراءة «البخاري» في أربعة أيّام.

قال السخاويُّ في «الضوء اللامع»[٢] في ترجمة عثمان بن محمد أبي عَمْرو الدِّيَمِيّ الشافعي ت (٩٠٨) لما عدّد مقروءاته في رحلته المدنيّة:

---

(١) (١/١٠١ ـ ١٠٢).

(٢) (٥/١٤١)، إلا أن السخاويَّ علَّق على هذا بقوله: «وما حَمِدت منه هذا»!.
أقول: لم يُفصِح عن السبب! ولعله لِمَا بينهما من المنافسة، ومن شعر السيوطي المشهور قوله:

قل للسخاوي إن تَعْروكَ مُشْكلةٌ ... علمي كبحرٍ مِنَ الأمواجِ مُلْتَطمِ
والحافظ الدِّيَمِي غيثُ الزمانِ ... فخذ غرفًا من البحرِ أو رشفًا من الدِّيَمِ

«وقرأ وهو هناك «الصحيحَ»[١] بتمامِهِ في الروضة الشريفة في أربعة أيامٍ» اهـ.

* العلاَّمة القَسْطَلاَّني (٩٢٣) *

ـ قراءة «البخاري» في خمسة مجالس.

قال السخاوي في «الضوء اللامع»[٢] في ترجمة أحمد بن محمد بن أبي بكر القسطلاني صاحب: «إرشاد الساري» ت (٩٢٣) عند تَعْداد مقروءاته: «وقرأ «الصحيح» بتمامه في خمسةِ مجالس على النَّشاوي» اهـ.

* إبراهيم البِقاعي الحنبلي (٩٣٥) *

ـ قراءة «البخاري» في ستة أيام و«مسلم» في خمسة.

ذكر النجم الغَزِّي في «الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة»[٣] في ترجمة إبراهيم البقاعي أنه قرأ على والده (البدر الغزي) البخاريَّ كاملاً في ستة أيام، سنة (٩٣٠)، و«صحيح مسلم» كاملاً في سنة إحدى وثلاثين في خمسة أيامٍ متفرِّقة ـ في عشرين يومًا ـ.

* وفي ترجمة الشيخ ابن باز المسمَّاة بـ«الإنجاز» أن أحد الطلبة قرأ على الشيخ «سنن النسائي» في سبعة وعشرين مجلسًا.

* * *

إلى هنا وأقول: لعلِّي قد أطلتُ فأمْلَلْتُ، وما زال في الوِفَاظ الكثيرُ

---

(١) أي: للبخاري، وهو المراد إذا أُطْلِق.
(٢) (٢/ ١٠٣)، وانظر: «البدر الطالع»: (١/ ١٠٢).
(٣) (٢/ ٧٦)، وانظر: «شذرات الذهب»: (٨/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦).

والكثيرُ، لكن فيما تقدم كفاية لمن ألقى السمع وهو شهيد، والإكثار لا ينفع العيون العُمي ولا الآذان الصُّمّ ولا القلوب الغُلْف!!.

لكن لابدَّ لي هنا من الإشارة إلى كتابين اثنين[1] فيهما خَبَرُ مالم أذكره هنا مما وقع للعلماء من ذلك.

الأول: كتاب «فِهْرِس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات» للعلامة عبدالحي بن عبدالكبير الكتاني ت (١٣٨٢): (٢/١٠٤٣ ـ ١٠٤٩) فقد ذكر من تلك الأخبار عددًا صالحًا (منه ما ذكرته ومنه مالم أذكره) ثم قال في خاتمة بحثه:

«وجامع هذه الشَّذْرة محمد عبدالحي الكتاني، قرأ «صحيح البخاري» تدريسًا بعنزة القرويين وغيرها قراءةَ تحقيق وتدقيق في نحو خمسين مجلسًا، لم يدع شاذَّةً ولا فاذَّةً تتعلَّق بأبوابه ومحلِ الشاهد منها إلا أتى عليها، مع غير ذلك من اللطائف المستجادة، ولعلَّه أغرب وأعجب من كلِّ ماسبق!! والله خالق القُوَى والقدر!» اهـ.

الثاني: كتاب «ذيل التقييد لرواة السنن والمسانيد» للحافظ تقي الدين الفاسي ت (٨٣٢) وهذه مواضعها: (١/١٥٦، ٢٢١، ٢٢٥، ٣٠٨)، (٢/٦٨، ٧٣، ١٣٤، ٢٢٦، ٢٦٩)، (٣/٤٨، ٦٩، ١٨٢، ٢٤٤، ٢٨٣، ٣٢٩).

* * *

(١) ومباحث متفرقة في بعض الكتب، مثل: «معجم الصدفي»: (ص/٥٤، ١٩٠، ٢٤١)، و«الفضل المبين»: (ص/٢١١ ـ ٢١٣)، و«قواعد التحديث»: (ص/٢٦٢ ـ ٢٦٣) كلاهما للقاسمي، و«خلاصة الأثر»: (١/٧٢ ـ ٧٣).

الفصل الرابع
في تَكْرار قراءة الكتاب الواحد المرات الكثيرة

تحدثنا في مامضى عن شغف العلماء بالكتب، وملازمتهم لقراءتها وإقرائها ليلهم مع نهارهم، في حلهم وترحالهم، وهذه صورة أخرى من صور الشغف والتعلُّق بالكتب، وهي الانكباب والعكوف على قراءة كتبٍ بعينها، فما إن ينتهي من استيفاء الكتاب قراءةً، حتى يبدأ فيه من جديد، فيقرؤه مرَّةً بعد مرَّة؛ فهو كالحالِّ المُرْتَحِل.

وغَنِيٌّ عن الذكر كم هو ثقيل على النفس أن يُعيدَ المرءُ كتابًا قرأه مرة واحدة! فكيف بقراءته مرَّات!!.

ولذلك كان من وصايا الشيوخ[1]: أنك إذا قرأت كتابًا فلا تفكر في العودة إليه مرةً أُخرى؛ لأن هذه الشعور سيؤدِّي بك إلى التفريط في فوائد كثيرة، أملاً في استيفائها في القراءة الثانية.

وعلى كل حال؛ فالمسألة تعوُّد، فمن تعوَّدَ قراءةَ الكتاب الواحد مراتٍ؛ فَبِها، ومن لا؛ فليستوف غرضَه من الكتاب في أول مرة، مع أن مُعَاودة مطالعة الكتاب الواحد مرَّات ـ خاصة مع تباعد وقت القراءة ـ

---

(١) هذه وصيَّة الشيخ العلامة محمد بن عثمان الحنبلي ت (١٣٠٨) لتلميذه العلامة عبدالقادر بن بدران، ذكرها في آخر كتابه «المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل»: (ص/ ٤٨٨).

يُوْقفك على مسائل وفوائد لم تكن لتقف عليها في أوَّل قراءتك، وذلك لتوسع مداركك وزيادة فهمك، وهذا أمر مجرَّب، وسيأتيك خبر المزني مع «الرسالة» للشافعي.

وقد قيل[١]: إن قراءة كتابٍ واحدٍ ثلاث مرات أنفع من قراءة ثلاثة كتب في الموضوع نفسه.

فهذا ذكر ما وقع لنا خبره من العلماء الذين عكفوا على قراءة كتبٍ معيَّنة وأُولعوا بها، حتى استظهرها بعضهم أو كاد، فمع ذلك أصبحت سميرهم وهجِّيراهم لا يُفارقون قراءتها.

* قراءة «الرسالة» للشافعي (٥٠) سنة.

ذكر ابنُ السُّبكي في «طبقات الشافعية الكبرى»[٢] في ترجمة الربيع ابن سليمان المزني صاحب الشافعي (٢٦٤) قال: «قال الأنماطي: قال المُزَني: أنا انظر في كتاب «الرسالة» منذ خمسين سنة، ما أعلم أني نظرتُ فيه مرَّةً إلا وأنا أستفيد شيئًا لم أكن عرفته» اهـ.

* قراءة البخاري (٧٠٠) مرة.

جاء في ترجمة الإمام غالب بن عبدالرحمن بن غالب بن تمام ابن عَطيَّة المحاربي ت (٥١٨) من كتاب «الغُنية»[٣] للقاضي عياض، و«الصلة»[٤]

---

(١) تُنسَب للعقاد.
(٢) (٢/ ٩٩).
(٣) (ص/ ٢٥٥).
(٤) (٢/ ٤٣٣)، والنص منه.

لابن بشكُوال قال: «قرأتُ بخط بعض أصحابنا أنه سمع أبا بكر بن عطية يذكر أنه كرَّر «صحيح البخاري» سبع مئة مرَّة» اهـ.

*** قراءة البخاري (١٥٠) مرَّة.**

وفي «إنباء الغمر»[١] في ترجمة سليمان بن إبراهيم بن عمر نفيس الدين العلوي اليمني ت (٨٢٥) قال: «فذكر لي أنه مَرَّ على «صحيح البخاري» مئة وخمسين مرة مابين قراءة وسماعٍ وإسماعٍ ومُقابلة...» اهـ.

وجاء في «فهرس الفهارس»[٢] نقلاً عن «طبقات الخواص» للشرجي أنه أتى على الصحيح (٢٨٠) مرة، قراءة وإقراء وإسماعًا.

وجاء في «البدر الطالع»[٣] أنه قرأ البخاري أكثر من خمسين مرة. فالظاهر أن الشوكاني لم يعد السماع والإسماع والمقابلة.

*** قرأ البخاري أكثر من (٤٠) مرة.**

وفي ترجمة أحمد بن عثمان بن محمد بن الكُلُوتاتي ت (٨٣٥) من «المجمع المؤسِّس»[٤] قال: «ثم حُبِّبَ إليه طلب الحديث، فابتدأ في القراءة من سنة تسع وسبعين (وسبع مئة) وهلُمَّ جرًا ما فَتَرَ ولاوَنَا، فلعله قرأ «البخاري» أكثر من أربعين مرَّة».

---

(١) (٧/ ٤٧٤)، و«المجمع المؤسس»: (٣/ ١١٦).
(٢) (٢/ ١٠٤٤).
(٣) (١/ ٢٦٥).
(٤) (٣/ ٥١).

* قرأ البخاريَّ أكثر من (١٠٠) مرة.

وفي ترجمة أبي بكر بن محمد بن عبدالله بن مقبل القاهري الحنفي المعروف بالتَّاجر ت (٨٠٥) من «الضوء اللامع»[١]: «قال البرهان الحلبي ـ تلميذه ـ: أنه أخبره أنه قرأ «صحيح البخاري» إلى سنة ثمانين ـ أي وسبع مئة ـ خمسًا وتسعين مرة، وقرأه بعد ذلك مرارًا كثيرًا» اهـ.

* قرأ البخاري على ٣٠ شيخًا.

ففي «دُرَّة الحجال»[٢] لابن القاضي المكناسي، في ترجمة عثمان ابن محمد بن عثمان التوزْرَي ت (٧١٣) أنه قرأ البخاري على أزيد من ثلاثين رجلاً من أصحاب البوصيري.

* قرأ البخاري على شيخ واحد أكثر من (٢٠) مرة.

وفي «إنباء الغمر»[٣] في ترجمة أسعد بن محمد بن محمود الشيرازي ت (٨٠٣) أنه قرأ «صحيح البخاري» على شمس الدين الكرماني أكثر من عشرين مرَّة.

* قرأ البخاري أكثر من (٦٠)، ومسلم أكثر من (٢٠).

وفي ترجمة البرهان الحلبي ت (٨٤٠) من «الضوء اللامع»[٤]: أنه قرأ البخاريَّ أكثر من ستين مرة، ومسلمًا نحو العشرين، سوى قراءته

---

(١) (١١/٧٩).

(٢) (٣/٢٠٩).

(٣) (٤/٢٦٣).

(٤) (١/١٤١).

لهما في الطلب، أو قراءتهما من غيره عليه.

* قرأ «البخاري» أكثر من (٥٠) مرة.

قال الكتاني في «فهرس الفهارس»[١]: «وجدت في ثَبَت الشهاب أحمد بن قاسم البوني: رأيتُ خطَّ الفيروزآبادي في آخر جزءٍ من صحيح الإمام البخاري قال: إنه قرأ صحيح البخاري أزيدَ من خمسين مرَّة» اهـ.

* قرأ «المهذب» أكثر من (٤٠) مرة.

ذكر عمر بن سَمُرة الجعدي في «طبقات فقهاء اليمن»[٢] في ترجمة الإمام الفقيه يحيى بن أبي الخير العِمْراني ت (٥٥٨) أنه قال عن نفسِه: «إنه لم يُعلِّق «الزوائد على المهذب» إلا بعد أن حفظه غيبًا على الإمام عبدالله بن أحمد الهَمْداني، ثم أعاده في أُحاظه (قرية باليمن)، ثم طالعه بعد ذلك كلِّه قبل التصنيف أربعين مرة أو أكثر.

وكان ـ رحمه الله ـ يُطالع الجزءَ من تجزئة أحدٍ وأربعين من «المهذَّب» في اليوم والليلة أربع عشرة مرة، لكلِّ فصلٍ منه» اهـ.

* قراءة معجم الأُدباء (٨) مرات.

قال الشيخ العلامة عبدالعزيز الميمني الراجكوتي ت (١٣٩٨) عن نفسه: «قرأتُ «معجم الأدباء» ـ لياقوت ـ على الأقل سبع أو ثماني

---

(١) (٢/١٠٤٦).

(٢) (ص/١٧٨).
وللعِمْراني طريقة في التدريس جديرة بالنظر والتأمُّل انظرها في المصدر السابق.

مرَّات، وأُفضِّله على كتاب «وَفَيات الأعيان» »[١] اهـ.

*** قرأ «التوضيح» (٧٠) مرة، و«شرح ابن المُصَنِّف» أكثر من (٣٠) مرة.**

وفي «الضوء اللامع»[٢] في ترجمة إبراهيم بن حجَّاج بن محرز ابن مالك أبو إسحاق الأبناسي ت (٨٣٦) قال السخاوي: «وحُكي أنه قرأ «التوضيح»[٣] أكثر من سبعين مرة، وابن المصنِّف[٤] ماينيف على الثلاثين».

*** قرأ «المدوَّنة» (١٠٠٠) مرة.**

تقدَّم[٥] خبرُ ابن التبَّان، وكيف جلده وصبره على القراءة والطلب، وقول القاضي عياض: «وكان كثير الدرس، ذكر أنه دَرَسَ كتابًا ألف مرة» ـ يعني: المدوَّنه ـ.

*** كان يدرس الكتاب ألف مرة.**

ذكر أبو العَرَب التميمي في «طبقات علماء إفريقية وتونس»[٦] في

---

(١) «مجلة المجمع العلمي الهندي»: (١٠/ ٣٥٥).
(٢) (١/ ٣٨).
(٣) «التوضيح» هو نفسه «أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك» لابن هشام الأنصاري ت (٧٦٢)، وهو أحد الكتب التي نثرت الألفية، وعليه شروح وحواشي كثيرة.
(٤) المقصود به بدر الدين أبي عبدالله محمد بن مالك ابن صاحب الألفية، اشتهر شرحه بشرح ابن المصنف. قال حاجي خليفه في «الكشف»: (١/ ١٥١): «وهو شرح منقَّح... خطَّأ والِدَهُ في بعض المواضع...».
(٥) (ص/ ٦٣).
(٦) (ص/ ٢٢٤).

ترجمة عباس بن الوليد الفارسي ت (٢١٨) أنه وُجد في آخر بعض كتبه: دَرَسْتُه ألفَ مرة.

* قراءة عددٍ من الكتب مرات عديدة.

ذكر القاضي عياض في «ترتيب المدارك»[1] في ترجمة الإمام أبي بكر الأبهري ت (٣٧٥) أنه قال عن نفسِه: «قرأتُ مختصر ابن عبدالحكم خمس مئة مرة، والأسدية خمسًا وسبعين مرة، والموطأ خمسًا وأربعين مرة، ومختصر البرقي سبعين مرة، والمبسوط ثلاثين مرة» اهـ.

* قراءة البخاري والكشاف مرات كثيرة.

قال المُحِبِّي في «خلاصة الأثر»[2] في ترجمة العلاَّمة علي بن عبدالواحد بن محمد الأنصاري أبو الحسن السِّجِلْماسِي الجزائري ت (١٠٥٧) أنه «بلغ الغاية القُصوى في الرواية والمحفوظات وكثرة القراءة، وحكى بعض تلامذته أنه قرأ «الستة» على مشايخه دراية، وقرأ «البخاري» سبع عشرة مرَّة بالدرس؛ قراءة بحثٍ وتدقيق، ومرَّ على «الكشَّاف» من أوَّله إلى آخره ثلاثين مرة، منها قراءة ومنها مُطالعة» اهـ.

وكان بعضهم من شدة ملازمتهم للكتاب يكاد أن يستظهره ويهذه عن ظهر قلب.

ففي ترجمة عبدالله بن محمد بن فَرْحون اليَعْمَري ت (٧٦٩) أنه قال عن نفسه: «لازمتُ تفسيرَ ابنِ عطية حتى كدت أحفظه»[3].

---

(١) (١٨٦/٦).
(٢) (١٧٣/٣).
(٣) «درة الحجال»: (٥٠/٣).

وفي ترجمة أبي القاسم بن علي بن مسعود الشاطبي أنه كاد يحفظ «صحيح البخاري» من كثرة التكرار له في كل رمضان[١].

ومن ذلك ـ أيضًا ـ ما ذكره السخاوي في «الضوء»[٢] في ترجمة عثمان بن عبدالله أبي عَمرو المَقْسي ت (٨٧٧) «أنه أكثر من ملازمة المرور على الكتب الأربعة: «التنبيه» و«المنهاج» و«البهجة» وأصلها، قراءةً وإقراءً، حتى صارت له بها مَلَكة قوية».

وفي ترجمة أحمد بن عمر الناشري اليماني[٣]: أنه اشتهر بمعرفة كتاب «الوسيط»[٤] حتى كان يعرفُ أين مكان المسألة فيه، وفي أيِّ صفحةٍ هي، بعد أن أُصِيْبَ بالعَمَىٰ.

* * *

(١) المصدر نفسه: (٣/ ٢٨٥).

(٢) (٥/ ١٣١).

(٣) من كتاب «هِجَر العلم ومَعَاقِله في اليمن»: (٤/ ٢١٦٧ رقم ٨).

(٤) للغزالي في فقه الشافعية، وله البسيط والوجيز والخلاصة، وقد قيل:

نقَّحَ المذهبَ حَبْرٌ أحسنَ اللهُ خَلاصَهْ
بِبَسِيطٍ ووسِيْطٍ ووجيزٍ وخُلاصَهْ

الفصل الخامس

في تدريس الكتاب الواحد المرات الكثيرة

كثيرًا ما ينتخب العالم كتابًا أو كتبًا في فنون العلم، ويُدْمن على قراءتها وإقرائها لطلابه، ويكون هو قبل ذلك قد أخذه عن شيوخه وتمرَّس فيه وخَبَرَه، بحيث لا تخفى عليه جمهور مسائله، وغالب غوامضه ومشكلاته، فيكون هو المرجع وعليه المعوَّل في حلِّ ذلك.

بل قد يبلغ الأمر إلى أن يُلَقَّب العالم بذلك الكتاب، كما وقع للشيخ الفقيه جمال الدين أحمد بن محمد الواسطي الأُشْمُومي الشافعي ت (٧٢٩)، فقد لُقِّب بـ«الوجيزي» لحفظه كتاب «الوجيز»[١] وعنايته به[٢]، كما لُقِّب الإمام الزركشي (٧٩٥) بـ«المنهاجي»[٣] نِسبةً إلى «منهاج الطالبين» للإمام النووي، لعنايته به وإتقانه له فهمًا وشرحًا.

وقد وقع للعلماء من ذلك شيءٌ كثير، وهو دالٌّ على صَبْرهم في نشر العلم وتعليم الناس، ودالٌّ ـ أيضًا ـ على أهمية هذه الطريقة (أعني المداومة على كتابٍ بعينه) في ترسيخ العلم، واستحضار مسائل الفنّ، وعدم تشتت الذهن، وهو مع ذلك دائم المطالعة في الفن مضيف إليه

(١) للغزَّالي.
(٢) «أعيان العصر»: (١/ ٣٧٩).
(٣) «إنباء الغمر»: (٣/ ١٣٨).

ما يحتاجه من تَدْليل وتعقيب وتنكيت وتحقيق.

فإلى شيءٍ من ذلك:

* إقراء «المهذَّب» (٢٥) مرة.

ففي ترجمة الفقيه كمال الدين عمر بن عبدالرحيم ابن العَجَمي الشافعي ت (٦٤٢): أنه ألْقَى كتاب «المهذب»[١] للشيرازي في فقه الشافعيةِ خمسًا وعشرين مرَّة[٢].

* إقراء «مسلم» أكثر من ٦٠ مرة.

وهذا الإمام الثقة عبدالغافر بن محمد الفارسي[٣] ت (٤٤٨)، كان ملازمًا لإقراء «صحيح مسلم» فَقُرِىء عليه أكثر من ستين مرَّةً؛ فقد قرأه عليه الحافظ الحسن بن أحمد السمرقندي نيِّفًا وثلاثين مرة، وقرأه عليه أبو سعد البَحِيري نيِّفًا وعشرين مرَّةً.

قال الحافظ الذهبي: «هذا سِوى ما قرأه عليه المشاهير من الأئمة»[٤] اهـ.

* أقرأ «المقْنِع» (١٠٠) مرة.

قال الحافظ ابن رجب في ترجمة الإمام الفقيه الزاهد إسماعيل ابن محمد

---

(١) مطبوع في ستٍّ مجلدات، وهو الذي شرحه النووي بالمجموع.
(٢) «سِيَر النبلاء»: (٢٣/ ٢١٦).
(٣) هو جدّ الإمام عبدالغافر بن إسماعيل بن عبدالغافر بن محمد الفارسي، صاحب «السياق لتاريخ نيسابور».
(٤) «سير النبلاء»: (١٨/ ٢٠).

ابن إسماعيل بن الفرَّاء الحرَّاني ثم الدمشقي الحنبلي ت (٧٢٩): أنه «كان له خبرة تامة بالمذهب، يُقرىء «المقنع» و«الكافي» ويعرفهما، وكتب بخطه «المغني» و«الكافي» وغيرَهما.

ويقال: إنه أقرأ «المقنع»[١] مئة مرَّة»[٢] اهـ.

*** أقرأ «الحاوي» (٣٠) مرة.**

وفي ترجمة الفقيه محمد بن عبدالقادر بن عمر السّنجاري المعروف بالسكاكيني الشافعي ت (٨٣٨) من كتاب «إنباء الغمر»[٣] للحافظ ابن حجر ـ عصريّه ـ: أنه كان مشهورًا بِخِبْرةِ كتاب «الحاوي» وحُسْن تقريره[٤]، بحيث قيل: إنه أقرأه ثلاثين مرَّة».

*** تدريس «العباب»[٥] (٨٠٠) مرة.**

ذكر الزبيدي في «تاج العروس»[٦] أن عبدالقديم[٧] بن عبدالرحمن ابن حسين النُّزيلي اليماني درَّس «العُباب» في الفقه ثمان مئة مرَّة.

---

(١) للحنابلة عِدَّة كتب بهذا الاسم؛ لكن المقصود هنا كتاب موفق الدين ابن قدامة المقدسي ت (٦٢٠)، وهذا الكتاب عمدة الحنابلة من زمن مؤلِّفه إلى يومنا. انظر: «المدخل المفصَّل»: (٢/ ٧٢٢) لشيخنا بكر أبو زيد.
(٢) «الذيل على طبقات الحنابلة»: (٢/ ٤٠٩).
(٣) (٨/ ٣٦٦).
(٤) انظر: «الضوء اللامع»: (٨/ ٦٨).
(٥) في فقه الشافعية، للقاضي شهاب الدين ابن الباعوني (٨١٠)، نظم، انظر «كشف الظنون»: (ص/ ١١٢٢).
(٦) (٨/ ١٣٥) مادة (نزل)، وعنه «هجر العلم»: (٣/ ١٧٧٤).
(٧) «القديم» ليس من أسماء الله!.

* ألقى «الكشاف» (٨) مرات.

وهذا الشيخ العالم الزاهد صالح بن عبدالله بن جعفر بن الصبَّاغ الكوفي الحنفي ت (٧٢٧) كان فريدًا في علوم التفسير وغيرها، وقد ألقىٰ «الكشاف» للزمخشري دروسًا من صدره ثمان مرَّات، مع بحثٍ وتدقيق، وإيرادٍ وتشكيك[١].

* إقراء البخاري مرات كثيرة.

ذكر السخاوي في «الضوء اللامع»[٢] في ترجمة الشيخ إبراهيم ابن محمد بن صدِّيق الحريري أنه لما جاور بمكة والمدينة؛ أقرأ البخاري أربع مرات بالمدينة، وبمكة أزيد من عشرين مرة.

* إقراء «المدوَّنة» كل شهرين مرة.

وجاء في «ترتيب المدارك»[٣] للقاضي عياض في ترجمة يحيى ابن هلال القرطبي ت(٣٦٧): أنه كان مقصودًا في السماع، دؤوبًا عليه، لم يُرَ في المحدّثين أصبر منه على المواظبة لذلك، كان يجلس كل يومٍ لاستماع «المدوَّنة» من الظهر إلى الليل، فيستوعب قراءتها كل شهرين، تمادىٰ على ذلك عمره.

* درَّس «التذكرة» (٤٠) مرة.

قال محمد بن محمد بن زبَارة في «مُلْحق البدر الطالع»[٤] عن

---

(١) انظر: «أعيان العصر»: (٢/ ٦٧٠)، و«الدرر الكامنة»: (٢/ ٢٩٩)، و«طبقات المفسرين»: (١/ ٢١٩)، و«الطبقات السنية»: (٤/ ٨٥) للتميمي.
(٢) (١/ ١٤٧).
(٣) (٦/ ٣٠١).
(٤) (٢/ ٥٢).

القاضي إدريس بن جابر العَيْزَرِي اليمني: أنه درَّس كتاب «التذكرة» زيادة على أربعين مرة.

* إقراء عددٍ من الكتب مراتٍ عديدة.

وجاء في ترجمة العلامة المحدِّث أبي عبدالله محمد التاودي ابن سودة المرِّي الفاسي ت (١٢٠٩) من كتاب «فِهْرس الفهارس»[(١)] للكتاني أنه:

كان مُثابرًا على إقراء «صحيح البخاري» حتى جاوزت ختماتُه الأربعين مرة، فلم يكن يدعه، لاسيما في شهر رمضان، يفتتحه في أول يومٍ منه، ويختمه آخره. وله عليه حاشية تسمَّىٰ بـ «زاد المجد الساري» نحوَ أربع مجلدات.

وأقرأ «الألفية» في النحو نحوًا من ثلاثين مرَّة، وربما أقرأها في الشهر الواحد بَدْءًا وخَتْمًا.

وأقرأ «مختصر خليل» نحو ثلاثين مرة.

أمَّا «الآجُرُّمِيَّة»؛ فلم يزل يُقرئها خصوصًا للصِّغار من أعقابه وأبناء أهل المودَّة إلى وفاته» اهـ.

* إلقاء المختصرات في أقْصَر مُدَّة.

وقد كان بعضُ العلماء لمزيد اعتنائهم ببعض الكتب، وممارستهم لها يُلقونها دروسًا في أسرعِ وقتٍ وأقصرِ مُدة، مع مزيد المثابرة والجهد، فمن ذلك:

---

(١) (١/٢٥٦ ـ ٢٥٨)، وقد جاوز عمره التسعين ـ رحمه الله ـ.

*** درَّس «المدوَّنة» في شهر.**

ذكر القاضي عِياض في «المدارك»[١]: في ترجمة أَبي إسحاق الجبنياني ـ أحد الأئمة ـ ت (٣٦٩) أنه قال: لقد كنا نجتمع، ولقد ألقينا «المدوَّنة» في شهر، ندرس النهار ونُلْقي الليل، فما علمتُ أنا نِمْنا ذلك الشهر.

*** إلقاء «الحاوي» مرات في شهر.**

ففي ترجمة الإمام العلامة المفتي علي بن عبدالله بن أبي الحسن التَّبْريزي الشافعي ت (٧٤٦) من كتاب: «أعيان العصر»[٢] عن ابن رافع السَّلاَّمي[٣] أنه (أي: التِّبريزي) أقرأ «الحاوي» للماوردي كُلَّه في نِصف شهر.

ثم قال الصفديُّ: وسمعتُ غيرَ واحدٍ من المصريين أنه أقرأ «الحاوي» من أوَّله إلى آخره في شهرٍ واحدٍ تِسْع[٤] مرَّات.

*** إلقاء «الحاوي» في أيامٍ يسيرة.**

قال الحافظ ابن حَجَر العسقلاني في «المجمع المؤسِّس»[٥] في

---

(١) (٦/٢٢٦).
(٢) (٣/٤٠٩).
(٣) ترجم له ابنُ رافعٍ في «الوفيات»: (٢/١٦ ـ ١٧)، وليس فيه مانَقَلَه الصفديُّ، فلعله من «معجم الشيوخ»، وهو كتاب كبير في عداد المفقود.
(٤) كذا في «أعيان العصر»، وفي «الدرر الكامنة»: (٣/٧٣) ـ وهو ينقل عن الصفدي ـ و«بُغية الوعاة»: (٢/١٧١)، و«طبقات المفسرين»: (١/٤١٢): «سبع» بتقديم السين. فالله أعلم.
(٥) (٢/٢٩٩).

ترجمة شيخه سراج الدين عمر بن رسلان البُلْقيني ت (٨٠٥): «ذكر لي ولده قاضي القضاة جلال الدين أنه كان يُلْقي «الحاوي» دروسًا في أيامٍ يسيرةٍ، من أغربها أنه ألقاه في ثمانية أيامٍ» اهـ.

جاء في «فهرس الفهارس»[1] ـ أيضًا ـ في ترجمة أبي رأس المُعَسْكري محمد بن أحمد بن عبدالقادر الجزائري ت (١٢٣٩): أنه كان مُتْقِنًا لجميع العلوم عارفًا بالمذاهب الأربعة، مُحقِّقًا لمذهب مالكٍ غايةً، لاسيما «مختصر خليل»؛ فَلَهُ فيه الملَكة التامة، بحيث يُلْقيه على طلَبته في أربعين يومًا، و«الخلاصة» في عشرة أيامٍ.

* * *

---

(١) (١/ ١٥٠). وحلاَّه الكتاني بـ «حافظ المغرب الأوسط ورحَّالته».
(لطيفة): كان يُذكر أبو رأسٍ هذا بقوَّةِ الحافظةِ وسَعَة الاطلاع، فاتُّهِمَ؛ فاجتمع جماعةٌ من تلاميذه فركَّبوا اسمًا نطقَ كلٌّ واحدٍ منهم بحرفٍ منه، وجعلوه اسمًا لملكٍ، وسألوا الشيخَ عنه؛ فأملى لهم ترجمتَه وسِيْرته وأعمالَه، فاتفقوا أن الشيخَ كاذبٌ!!.
ولما طالت المدَّة؛ وقف أحدُهم على الاسم والسيرة في كتابٍ تاريخي على نحو ما كان أملاه الشيخ أبو رأسٍ عليهم، فعلموا أن الشيخَ صادق وهم مقصِّرون متهمون الشيخ مما هو منه بريءٌ.
قال الكتاني: وهذه حالة كبار الحفاظ مع القاصرين والجاهلين.

الفصل السادس
في نسخ الكتب وما تحمَّلوه في ذلك

عاش أكثر أهل العلم في سالف الدهر وآنِفِه عِيْشةَ الكفاف، فلم يكن همهم جمع المال ولا طلب الدنيا، ورُزقوا من القناعة ما أورثهم غِنَىٰ النفسِ، فكان أحدهم غنيًّا من غير مال، عزيزًا من غير حَمِيَّة ولا عَشِيرة، وكانت تلك المعيشة خير مُعِينٍ لهم على الانجماع في طلب العلم وعدم الالتفات إلى غيره، لأنه لا يقبل الشركة.

ولما كان حالُهم كذلك = لم يكن لهم ما يستطيعون به اقتناء ما يحتاجون إليه من كتب وأسفار، ولم يكن لديهم ما يمكن به استئجار من ينسخ، فكانوا إما أن يستعيروا الكتب[1]، أو ينسخوها بأنفسهم.

هذا عدا ما يكتبونه من تآليفهم الخاصة، كما نسخ الحافظ المزِّي كتابيه الضخمين (تحفة الأشراف، وتهذيب الكمال) بيده أكثر من مرَّة[2]، وفَعَل الذهبيُّ الأمرَ نفسِه في أضخم كتبه (تاريخ الإسلام، وسير

(١) لذا ورد الترغيبُ في إعارة الكتب لمستحقيها، وعَقَد العلماءُ لذلك فصولاً في ثنايا كتبهم، وأوردوا فيه من القَصَص والحكايات والأشعار الكثير والكثير، من الجانبين المُعِيْر والمستعير.

(٢) انظر: «ذيل تاريخ الإسلام»: (ق/ ١١٤ أ ـ ب) للذهبي، و«طبقات علماء الحديث»: (٤/ ٢٦٧)، و«طبقات الشافعية الكبرى»: (١٠/ ٤١٧)؛ لأنه ربما افْتَقَر فباعهما.

النبلاء) وغيرها، وهكذا.

وربما افتقر العالم فباع نسخته التي بخطه، كما وقع لأبي علي الجياني[١]، وللمزي[٢] وغير واحد.

والناظر في تراجمهم وسيرهم يعلم مقدار مابذلوه من أوقات طويلة، وجهود جبارة، وصبر جميل في نسخ الكتب الكبار، والجوامع الضخمة، التي ينوء بنسخ أقلها اليوم الطالب المُجِدّ، فإلى نماذج منها:

١ ـ قال السَّهْمي في «تاريخ جرجان»[٣]: سمعتُ أبا بكر الإسماعيلي وأبا أحمد بن عدي يقولان: إسماعيل بن زيد (صاحبُ حديثٍ جوَّال) كان يكتب في ليلةٍ سبعين ورقة بخطٍّ دقيق.

٢ ـ وذكر ابن رجب في «الذيل على طبقات الحنابلة»[٤] في ترجمة عبدالوهاب الأنماطي الحافظ عن ابن السمعاني أنه قال عنه: «جمع الفوائد، وخرَّج التخاريج، لعله ما بقي جزءٌ مرويٌّ إلا وقد حصَّلَ نُسْخَتَه. ونسخ الكتب الكبار مثل: «الطبقات لابن سعد»، و«تاريخ الخطيب»، وكان متفرِّغًا للتحديث؛ إما أن يقرأ عليه أو ينسخ شيئًا.

٣ ـ وفي ترجمة الحافظ عبدالقادر الرُّهاوي ت (٦١٢) من «الذيل»[٥]

---

(١) انظر: «التكملة لكتاب الصلة»: (٤/ ١٦) فقد باع نسخته من «سنن أبي داود» بخطه، التي قرأها على ابن عبدالبر، وقابلها وأتقنها.

(٢) «الدرر الكامنة»: (٤/ ٤٦١).

(٣) (ص/ ١٤٣).

(٤) (١/ ٢٠٢).

(٥) (٢/ ٨٤).

أنه: «كتب بخطه الكثيرَ، من الكتب والأجزاء، وأقام بدمشق بمدرسة ابن الحنبلي مدة، حتى نسخ «تاريخ ابن عساكر»، وسمعه عليه» اهـ.

٤ ـ وفيه[١] ـ أيضًا ـ في ترجمة أحمد بن عبدالدائم المقدسي ت (٦٦٨): «وكان يكتب خطًّا حسنًا، ويكتب سريعًا؛ فكتب مالا يوصَف كثرة من الكتب الكبار والأجزاء المنثورة لنفسه وبالأُجرة، حتى كان يكتب في اليوم ـ إذا تفرَّغ ـ تسع كراريس أو أكثر، ويكتب ـ مع اشتغاله بمصالحه ـ الكراسين والثلاثة.

وكتبَ «الخِرَقي» في ليلة واحدة، وكتب «تاريخ الشام» لابن عساكر مرتين، و«المغني» للشيخ موفّق الدين مرَّات.

وذكر أنه كتب بيده ألْفَي مُجلَّدة، وأنه لازم الكتابة أزيد من خمسين سنة» اهـ.

٥ ـ وفي «تذكرة الحفاظ»[٢] للذهبي في ترجمة أبي عبدالله الحُمَيْدي الأندلسي ت (٤٨٨): «قال يحيى بن البناء: كان الحُميدي من اجتهاده ينسخ بالليل في الحرّ؛ فكان يجلس في إجَّانة ماءٍ[٣] يتبرَّد به» اهـ.

٦ ـ وفي «التذكرة»[٤] ـ أيضًا ـ في ترجمة أبي الفضل محمد بن طاهر المقدسي ت (٥٠٧): وقال السِّلَفي: سمعتُ ابنَ طاهر يقول: كتبتُ «الصحيحين» و«سنن أبي داود» سبع مرات بالأجرة، و«سنن ابن ماجه»

---

(١) (٢/٢٧٩).
(٢) (٤/١٢١٩).
(٣) إناء تُغسل فيه الثياب.
(٤) (٤/١٢٤٣).

عشر مراتٍ بالرَّي» اهـ.

سبحان الله!! ينسخ هذه الكتب هذا العدد من المرات، ولو كُلِّف أحدنا قراءَتَها بنحو هذا العدد لعجز، فلا قوَّة إلا بالله.

٧ ـ وفي «التذكرة»[١] ـ أيضًا ـ في ترجمة المؤتمن الساجي ت (٥٠٧) أنه: «أقام بهَرَاة نحو عشر سنين، وقرأ الكثير، وكتب «جامع الترمذي» ست مرات، وكان فيه صَلَف وقناعة وعِفّة واشتغال بما يعنيه».

٨ ـ وفي «ذيل الطبقات»[٢] لابن رجب في ترجمة أبي الفرج ابن الجوزي صاحب التصانيف ت (٥٩٧) أنه: «كان لا يضيع من زمانه شيئًا، يكتب في اليوم أربع كراريس، ويرتفع له كل سنة من كتابته مابين خمسين مجلدًا إلى ستين.

وقال سِبْطُه[٣]: «إنه سمعه على المنبر في آخر عمره يقول: كتبتُ بإصبعيَّ هاتين ألفي مُجلَّدة».

٩ ـ وفي «ترتيب المدارك»[٤] للقاضي عياض، في ترجمة الإمام أبي بكرٍ الأبهري المالكي ت (٣٧٥) عن أبي القاسم الوهراني ـ أحد تلاميذه وله جزء في ترجمته ـ قال: «سمعتُه يقول: كتبت بخطي «المبسوط» و«الأحكام» لإسماعيل ـ القاضي المالكي ـ، وأَسْمِعَة ابنِ القاسم وأشهبَ وابنِ وهبٍ، و«موطأ مالك»، و«موطأ ابن وهب»، ومن

---

(١) (٤/ ١٢٤٧).
(٢) (١/ ٤١٢).
(٣) «الذيل»: (١/ ٤١٠).
(٤) (٦/ ١٨٥ ـ ١٨٦).

كتب الفقه والحديث نحو ثلاثة آلاف جزءٍ بِخَطِّي، ولم يكن لي قط شغل إلا العلم» اهـ.

١٠ ـ وفي «المدارك»[(١)] ـ أيضًا ـ في ترجمة سعيد بن خلف الله البصري قال: «وكتب بيده كثيرًا من الدواوين، قَلَّما رأيتُ كتابًا مشهورًا في المذهب إلا وقع إليَّ بخطه، وسواءٌ ذلك من كتب التفسير أو غيرها» اهـ.

١١ ـ وفي ترجمة محمد بن مُكَرَّم ـ بضم الميم وفتح الكاف وتشديد الرَّاء ثم ميم ـ المعروف بابن منظور صاحب «لسان العرب» أنه: اختصر كتبًا كثيرة، من المطوّلات وغيرها.

فاختصر «تاريخ بغداد»، و«ذيله» لابن النجار، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر، و«مفردات ابن البيطار»، و«الأغاني» ـ ورتبه على الحروف ـ و«زهر الآداب» للحُصْري، و«الحيوان» للجاحظ، و«اليتيمة» للثعالبي، و«الذخيرة» لابن بسَّام، و«نشوار المحاضرة» للتنوخي.

وكتب بخطه شيئًا كثيرًا، ترك منه بعد موته خمس مئة مجلَّد.

قال ابن فضل الله العمري: إنه لم يزل يكتب ويسهر الليل في الكتابة حتى كان يقضي الليالي الطوال كلها سهرًا، لا يلم فيها بِكَرَىٰ، ولا يطعم عينه فيها بِهَجْعَة. وكان يتخذ إلى جانبه إناءً فيه ماء، فإذا غلبه السَّهَر، وكاد يصرعه الكرى = أخذَ من الماء فَسَكب في عينيه، فَعَمِيَ في آخر عمره[(٢)].

---

(١) (٨/ ٨٥ ـ ٨٦).

(٢) انظر «المقفى»: (٧/ ٢٨٦، ٢٨٨)، و«الدرر الكامنة»: (٤/ ٢٦٢)، و«بغية الوعاة»: (١/ ٢٤٨).

١٢ ـ وفي «الرد الوافر»[(١)] لابن ناصر الدين الدمشقي، لما ذكر محمد بن إبراهيم ابن المهندس قال: «كتب الكثير ورحل ودأب... ونسخ «تهذيب الكمال»[(٢)] تأليف المِزِّي مرتين، ونسخ كتاب «الأطراف»[(٣)] ـ تحفة الأشراف ـ للمِزِّي ـ أيضًا ـ بخطِّه الواضح الحسن» اهـ.

١٣ ـ ذكر أبو سعد السمعاني في «التحبير في المعجم الكبير»[(٤)] ـ وهو من عجيب ما رآه ـ في ترجمة أبي عبدالله الحسين بن أحمد البيهقي أنه اتفق أن لحقته عِلَّة؛ «فَقُطِعت أصابعه العشر، ولم يبقَ له إلا الكفَّان فحسب، ومع هذا كان يأخذ القلمَ بكفَّيْه ويضع الكاغَدَ على الأرض، ويُمسكه بِرِجْل، ويكتب بكفيه خطًّا حسنًا مقروءًا مبينًا، وربما كان يكتب في كل يومٍ خمس طاقات[(٥)] من الكاغد، وهذا من عجيب ما رأيته» اهـ.

١٤ ـ وفي «التحبير»[(٦)] ـ أيضًا ـ في ترجمة أبي محمد الخواري أنه كان فقيهًا مفتيًا، سريع القلم، نسخ بخطه «المذهب الكبير»[(٧)] للجويني

---

(١) (ص/ ٧٨).

(٢) وهذه النسخة في دار الكتب المصرية (٢٦ ـ مصطلح) كتبها سنة (٧١٢) وعليها خط المؤلف الحافظ المزي، والعلائي. أورد الزركلي في «الأعلام»: (٥/ ٢٩٨) نموذجًا منها.

(٣) وهذه النسخة سبعة أجزاء، لم يبق منها إلا الجزء السادس، انظر نبذةً عنها في «مقدمة تحفة الأشراف»: (٢/ ٢٣ ـ ٢٥) لعبدالصمد شرف الدين.

(٤) (١/ ٢٢٣).

(٥) الطاقة نحو (١٠) ورقات، انظر: «توثيق النصوص»: (ص/ ٢٣١ ـ ٢٣٣).

(٦) (١/ ٤٢٣).

(٧) وهو: «نِهاية المَطْلَب» وقد تقدَّم التعريف به (ص/ ٧٤).

أكثر من عشرين مرَّة، وكان يكتبه ويبيعه.

١٥ ـ وذكر النووي في «بستان العارفين»[١] عن شيخه أبي إسحاق إبراهيم بن عيسى المراوي قال: سمعتُ الشيخ عبدالعظيم ـ المنذري ـ رحمه الله يقول:

كتبتُ بيدي تسعينَ مجلَّدةً، وكتبت سبع مئة جُزْءٍ، كلُّ ذلك من علوم الحديث؛ تصنيفٍ وغيرِه، وكتب[٢] من مصنفاته وغيرها أشياء كثيرة.

قال المراوي: ولم أرَ ولم أسمع أحدًا أكثر اجتهادًا منه في الاشتغال؛ كان دائم الاشتغال في الليل والنهار.

١٦ ـ ذكر الصفدي في «أعيان العصر»[٣] في ترجمة العلامة شهاب الدين النُّوَيري ت (٧٣٣) أنه: «كتب كثيرًا؛ كتب «البخاريَّ» مرّاتٍ، كتبه ثماني مرات، وكان يكتب النسخة ويقابلها، وينقل الطِّباق عليها ويجلدها، ويبيعها بسبع مئة درهم وبألف.

وكان يكتب في النهار الطويل ثلاث كراريس، . . . وجمع تاريخًا كبيرًا[٤] في ثلاثين مجلدة، رأيتُه بخطِّه» اهـ.

١٧ ـ وذكر في «أعيان العصر»[٥] ـ أيضًا ـ في ترجمة أحمد بن محمد بن أبي المواهب ت (٧٢٣) قال: «قيل: إنه كتب خمس كراريس

---

(١) (ص/ ١٩٧).
(٢) في المطبوعة: «وكتب ذلك من»! والصواب ما أَثبتُّ.
(٣) (١/ ٢٨١).
(٤) وهو: «نهاية الأرب»، طُبع كاملاً في (٣٣) مجلدًا.
(٥) (١/ ٣٢٧).

في يومٍ، وهذا أمر قلَّ أن يُعْهد في قوم».

هذا فيض من غيض، وقليل من كثير، فقد اجتمع عندي أخبارٌ من هذا النمط لو نَثَرْتُها لملأت صفحات وصفحات.

ولـــولا أن يُظـــنَّ بنـــا غُلُـــوّ   لَزِدْنا في المقالِ مَن اسْتَزَادا

لكني لا أحب أن أُفوِّت الفائدة على القارىء، فرأيت أن أُشير إلى مواضع ذلك في مصادره دون ترتيبٍ.

«البدر الطالع»: (١/ ١٠٦، ٣٥٧، ٤٢٠) (٢/ ٩٤)، «ملحق البدر الطالع»: (٢/ ٨٣)، «السير»: (١٦/ ٢٤٨)، (٢٣/ ٢٤٨)، «أعيان العصر»: (١/ ٤٨، ١٦٩، ١٧٠، ٤١٥)، «إشارة التعيين»: (ص/ ٤٣)، «الجواهر والدرر»: (١/ ١٠٧)، «معرفة القراء الكبار»: (١/ ٢٦٥)، «الطبقات السنية»: (٣/ ٧١)، «المقفى»: (٧/ ٤١٧)، «ذيل التقييد»: (١/ ١٧٨)، «التحبير في المعجم الكبير»: (١/ ٣٩٠، ٥٩٠)، (٢/ ١٣٤).

❊ ❊ ❊

الفصل السابع
إيقاظات وتنبيهات

الأول: ما هي العلوم التي ينبغي التبحُّر فيها؟

لاشك أن الناس قدرات ومواهب، فينبغي للإنسان أن ينظر بعين البصيرة فيما يمكن أن يحسنه ويُبْدع فيه (وقيمة كل امرىءٍ ما يحسنه)، فيكرِّس فيه جهدَه ويستنفد فيه وُسْعَه، ويكون مع ذلك ذا همة عالية، فإن «من شَغَلَ نفسَه بأدنى العلوم وتركَ أعلاها ـ وهو قادر عليه ـ، كان كزارع الذُّرَة في الأرض التي يجود فيها البُرُّ، وكغارس الشَّعْراء[١] حيثُ يزكو النخل والزيتون».

أمَّا «من مال بطبعه إلى علمٍ ما ـ وإن كان أدنى من غيره ـ فلا يشغلها بسواه، فيكون كغارس النارجيل[٢] بالأندلس، وكغارس الزيتون بالهند، وكلُّ ذلك لا يُنجب»، كما قال ابن حزم[٣] ـ رحمه الله ـ.

لكن السؤال، ما هي أجلّ العلوم؟

أجل العلوم ما قرَّبك من خالقك، وما أعانك على الوصول إلى

---

(١) ضرب من الحمضيات، ليس له ورق تحرص عليه الإبل.

(٢) هو: جوز الهند.

(٣) في «رسالة مداواة النفوس»: (١/ ٣٤٤) ضمن «رسائل ابن حزم» وما بين الأقواس منه.

رضاه، وهذه هي علوم الكتاب والسنة.

قال الحافظ ابن رجب ـ رحمه الله[١] ـ: «فالذي يتعيَّن على المسلم الاعتناءُ به والاهتمامُ: أن يبحثَ عمَّا جاء عن الله ورسوله ﷺ، ثم يجتهد في فهم ذلك، والوقوف على معانيه، ثم يشتغل بالتصديق بذلك إن كان من الأمور العِلْمية. وإن كان من الأمور العَمَلية، بذلَ وُسْعَه في الاجتهاد في فِعْل ما يستطيعه من الأوامر، واجتناب ما يُنهى عنه، وتكون همته مصروفة بالكُلِّيَة إلى ذلك، لا إلى غيره.

وهكذا كان حالُ أصحاب النبيِّ ﷺ والتابعين لهم بإحسان في طلبِ العلم النافع من الكتاب والسنة» اهـ.

وقال الحافظ ابن حجر[٢] ـ رحمه الله في بيان المراد من العلم المطلوب التزود منه ـ: «[هو] الذي يفيد معرفةَ ما يجب على المكلَّف من أمر عباداته ومعاملاته، والعلم بالله وصفاته، وما يجب له من القيام بأمره، وتنزيهه عن النقائص، ومدار ذلك على التفسير والحديث والفقه» اهـ.

وعلى هذا النحو تدور عبارات الأئمة في بيان العلم النافع الذي ينبغي التبحُّر فيه، والحرص عليه، والاستكثار منه[٣]، فلا نطيل بنقل نصوصهم.

---

(١) في «جامع العلوم والحِكَم»: (١/ ٢٤٤ وما بعدها).
(٢) «فتح الباري»: (١/ ١٧٠ ـ ١٧١).
(٣) انظر: «إعلام الموقِّعين»: (١/ ٥)، و«فضل علم السلف على علم الخلف»: (ص/ ٦٧ ـ ٦٩، ٦٤ ـ ٦٥). و«مسائل في طلب العلم وأقسامه»: (ص/ ٢٠٥) للذهبي ضمن «ست رسائل» و«الفوائد»: (ص/ ١١١، ٢٥٤).

وينبغي أن ننبِّه هنا إلى أن اكتمال الملكة في العلوم السابقة الذكر (علوم المقاصد) مرهونٌ باكتمال الفهم والاستيعاب لعدد من العلوم الآلية المساعدة؛ كعلوم العربية، وأصول الفقه، والمصطلح. . . ، فبعض تلك العلوم يجب تعلّمه وجوبَ الوسائل؛ إذ يتوقف فهم كلام الله ورسوله على فهم بعض مسائلها، فهي من قبيل (مالا يتم الواجب إلا به)، فهذا ما يجب، وأما مالا يجب؛ فما لا تأثير له، ومالا ينبني عليه عمل، ولا ريب أنه بمقدار أَخْذ العالِم من العلوم المساعدة، وتمكنه منها ـ **خاصَّة فيما يتوقَّف فهم الخطاب عليه، وليس من الأبحاث المقررة أو التي هي فَضْلَة** ـ، يكون أقدر على الاجتهاد والاستنباط[١]، فإن العلوم آخذٌ بعضها برقاب بعضٍ[٢].

* * *

الثاني: الموازنة بين قراءة الكتب والأخذ عن الشيوخ

أَخْذ العلم له طريقان:

أحدهما: طريق المشافهة، وهو أخذه عن أهله العلماء به، وهذا هو الأصل الأصيل في تلَقِّي العلوم، وهذه طريقة السلف؛ قبل تدوين الكتب وبعدها، وليس هنا مجال الحديث عن هذه الطريقة.

الثانية: أخذه عن الكتب والمصنفات، وهي دواوين العلم وخزائنه.

---

(١) انظر «مفتاح دار السعادة»: (١/ ٤٨٢ ـ ٤٨٦) وهو مهم.

(٢) ذكر الشاطبي في «الموافقات»: (٥/ ٥٣) عن الجرمي أنه قال: «أنا منذ ثلاثين سنة أفتي الناس في الفقه من «كتاب سيبويه» » اهـ. وانظر شرح الشاطبي لهذا القول.

وهـٰهنا يُنبَّه إلى أُمور:

١ ـ لابُد من الموازنة والمزاوجة بين أخذ العلم من الكتب وأخذه من العلماء، فإن العلم وإن كان موْدعًا في بطون الكتب، إلا أن مفاتِحَهُ بأيدي الرجال، كما في المقولة المشهورة[١].

فلا أقلَّ من أخذ مختصر في كلِّ علمٍ على عالمٍ به متخصِّص فيه[٢]، فبعد أن يُحَصِّل الطالب قاعدةَ الفن وأصوله[٣]، فَلْيَبْنِ عليه حينئذٍ، مع التدرُّج والترقِّي بالقراءة في مطوَّلاته وشروحه، وليحرص مع ذلك كلِّه على مُسَائلَةِ أهل الفن ومذاكرتهم، فإنه كما قال الإمام النووي «مذاكرة حاذِقٍ في الفنِّ ساعةً أنفع من المطالعة والحفظ ساعاتٍ بل أيَّامًا»[٤].

ولا ينبغي للطالب أن يبالغ في مقدار القراءة والأخذ عن الشيوخ ليقيسَ نفسَه بما سلف من العصور؛ إذ كان الشيخ والطالب في تفرُّغ تَامّ للقراءة والإقراء، مع قطع العلائق والعوائق، وتمام الأهلية من الجهتين،

---

(١) «الموافقات»: (١/ ١٤٠)، وفي «السير»: (٧/ ١١٤) في ترجمة الأوزاعي قال: «كان هذا العلم كريمًا، يتلاقاه الرّجال بينهم، فلما دخل في الكتب، دخل فيه غير أهله». وانظر شرح الذهبي لها.

(٢) أَخْذ العلم على المتخصِّص فيه هو الأولى والأسْلَم، ولا تصدِّق إذا قيل لك: إن فلانًا متخصِّص في كلِّ فنّ أو في أغلب الفنون! هذا في القدماء، وفي المُحْدَثين أولى وأحرى، ومن يدّعي المعرفة بجميع الفنون فأحد رجلين؛ إما منادٍ على نفسِه بالجهالة، أو لا يدري ما التخصّص!!.

(٣) وهو ما عبّر عنه الشاطبي بقوله: «أن يحصل له من فَهْم مقاصد ذلك العلم المطلوب، ومعرفة اصطلاحات أهله؛ ما يتمّ له به النظر في الكتب» اهـ «الموافقات»: (١/ ١٤٧).

(٤) «شرح مسلم»: (١/ ٤٨).

وهذا من نقص العلم وقبضه، إذ قبضه بقبض العلماء، وإلا فالكتب أكثر انتشارًا وتداولاً من ذي قبل.

٢ ـ ينبغي التمعُّن في اختيار المتن الذي يُرَاد حفظه أو درسه، ليكون مناسبًا للطَّالب من أغلب الوجوه على الأقل، حتى لا ينتقل منه إلى غيره، فإن كثرة التنقل في الكتب دليل على ملل الطالب وعدم فلاحه غالبًا.

٣ ـ ليحرص الطالب أشدَّ الحرص على كتب المتقدمين والمحققين من أهل العلم، أما المتقدمين؛ فواضح، وأمّا المحققين؛ فلا يخلو كلُّ عصر من قائم لله بحجة من أولئك العلماء المحققين[1]، أصحاب التصانيف النافعة المحرَّرة، في كل الفنون الإسلامية، وتمتاز هذه الكتب بالتأصيل العلمي، وتدليل المسائل، وتحريرها، والاعتناء بما يَنْبَني عليه عملٌ، والبعد عن المجادلات اللفظية، والمُمَاحكات الكلامية التي لا أَثَرَ لها في العلم نفسِه، وهذه بعض الأمثلة من عصور مختلفة ليستدل بها على غيرها:

(كابن جرير (٣١٠)، والخطيب البغدادي (٤٦٣)، وابن عبدالبر (٤٦٣)، والبغوي (٥١٦)، وابن قدامة (٦٢٠)، والنووي (٦٧٦)، وابن دقيق العيد (٧٠٢)، وشيخ الإسلام ابن تيمية (٧٢٨)، وابن القيم (٧٥١)، وابن كثير (٧٧٤)، وابن رجب (٧٩٥)، والعراقي (٨٠٦)، والحافظ ابن حجر (٨٥٢)، وغيرهم[2].

---

(١) انظر صفة العالم المحقق في «الموافقات»: (١/ ١٣٩ ـ ١٤٥).
(٢) وانظر «حلية طالب العلم»: (ص/ ٥٥).

وعليه؛ فاحذر كتبَ أهل البدع والضلالة في القديم والحديث، قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ «. . . ولهذا كُرِه لمن لا يكون له نقدٌ وتمييزٌ النظرَ في الكتب التي يَكثُر فيها الكذبُ في الرواية، والضلالة في الآراء ككتب أهل البدع، وكُرِه تلقِّي العلم من القُصَّاص وأمثالهم، الذين يكثر الكذبُ في كلامهم، وإن كانوا يقولون صِدْقًا كثيرًا»[1] اهـ.

* * *

الثالث: التعرف على أنواع القراءة

من المفيد أن يتعرَّف الطالبُ على أنواع القراءة، ويُنمِّي قُدُراته ليكتسب المزيد من مهارات القراءة، وفي ذلك بحوثٌ ودراسات كثيرة؛ ولكن ننبِّه هنا إلى أمور:

١ ـ لابد أوَّلاً من النظر في نوعية الكتاب المقروء، فليس كلُّ كتابٍ أستطيع أن أُطبِّق عليه قواعد القراءة السريعة؛ فمثلاً كتب الفقه أو الأصول أو المصطلح لابدّ من قراءتها قراءةً متأنِّيَة، ليتمكن القارىء من استيعابِها وفهمها، فالقراءة هنا قراءة دَرْسٍ وفهم.

٢ ـ إذا تمكّن الطالبُ من فنٍّ ما، وألَمَّ بجمهور مسائله واصطلاحاته، فلا حرج عليه حينئذٍ في قراءة ما يستجد له من كتب الفن قراءةً سريعة، يلتقط فيها ما يجدّ له من مباحث وفوائد وغير ذلك، فتختلف القراءة من شخصٍ إلى آخر بحسب التمكّن من الفن والمعرفة به، فليست قراءة المتخصِّص في الفقه لكتاب «المغني» مثلاً كقراءة غير المختصّ، وهكذا.

---

(١) «منهاج السنة»: (٢/٤٦٨).

٣ ـ كتب التاريخ والأدب والسير والتراجم والموسوعات الضخمة، وكتب المعارف العامة = هذا الصنف من الكتب هو مادة الجَرْد، وموضوع القراءة السريعة، فيستطيع الطالب المُجِد أن يأتيَ على أكثر هذه الكتب مُطالعةً[١]، مع تدوين ما يعنّ له من فوائد ونكات ومباحث في غير مظانِّها. في أوراق خاصة (كما سيأتي بعد قليل)، أما من تعانىٰ هذا النوع من القراءة، وأراد تطبيقه على بعض الكتب الدسمة والمراجع الأصيلة المهمة، مثل: «التمهيد»، و«فتح الباري»، و«تاج العروس»، و«تفسير القرطبي»، و«أضواء البيان»، وغيرها، فلن يخرج بالفائدة التي كان يرجوها، فلهذا النوع من الكتب نوع خاص من القراءة.

* * *

الرابع: تقييد الفوائد

إذا انخرط الطالبُ في سِلْك القُرَّاء وانضم إلى ناديهم، فلابُدَّ له من استثمار قراءته وتوظيفها، ليجنيَ منها ما تمنَّى، ولا يضيع تعبه سدى، ولا طريقة أنفع ولا أنجع لتحقيق ذلك من الكتابة والتقييد. فيقيد الفائدة المستجادة، والنقل العزيز، والتحرير المُدَلَّل، والترتيب المبتكر، وطرائف النقول والحِكَم، ودقائق الاستنباطات، ولطائف الإشارات، والأشباه والنظائر، وغيرها.

فكلّ نوع من هذه الفوائد له في عقل الطالب الجاد وقَلْبه مكانه الخاصّ به اللائق بمثله، فمعرفة اقتناص الفوائد شيء، وسرعة اقتناصها

---

(١) انظر الطريقة التي ذكرها أبو عبدالرحمن بن عقيل في «الفنون الصغرى ـ السفر الخامس» في قراءة مثل هذه الكتب.

والاحتفاظ بها شيء ثانٍ، ثم معرفة توظيفها ووضعها في مكانها اللائق بها شيءٌ ثالث، فإذا اجتمعت هذه الثلاثة استكملَ الطالبُ فوائدَ القراءة وجنى ثمرتَها.

قال الإمام النووي[١] ـ وهو يرشد الطالب إلى تعليق النفائس والغرائب مما يراه في المطالعة أو يسمعه من شيخه ـ: «ولا يحتقرن فائدة يراها أو يسمعها في أيِّ فنٍّ كانت، بل يُبادِر إلى كتابتها، ثم يواظب على مطالعة ما كتبه...» اهـ.

وقال[٢] ـ أيضًا ـ: «ولا يؤخِّر تحصيل فائدة ـ وإن قَلَّت ـ إذا تمكَّن منها، وإنْ أَمِنَ حصولها بعد ساعة؛ لأن للتأخيرِ آفاتٌ، ولأنه في الزمن الثاني يُحَصِّل غيرَها» اهـ.

فهذه نصيحة غاليةٌ، ولَفْتَةٌ من إمام، فتمسَّك بها تُفْلِح.

فكم من عالمٍ أبدى أسَفَه وحَسْرَته على فوائد فاته تقييدُها فشردت، أو اتكل على حافظته فخانته (والحفظ خوَّان)، فهذا الإمام ابنُ حجر (حافظ عصره) فاتَه تقييدُ شيءٍ من الفوائد فتأسَّف عليه، قال تلميذه السخاوي في «الجواهر والدرر»[٣]: «أما التفسير؛ فكان فيه آيةً من آيات الله تعالى، بحيث كان يُظْهِر التأسُّفَ في إهمال تقييد ما يقع له من ذلك مما لا يكون منقولاً... وفي أواخر الأمر صار بعض طلبته يعتني بكتابة ذلك».

---

(١) «المجموع»: (١/ ٣٩).
(٢) المصدر نفسه: (١/ ٣٨).
(٣) (٢/ ٦١١).

وصدق القائل: «وكم حَسَراتٍ في بطونِ المقابرِ».

وأنت إذا نظرت في سِيَر العلماء، وكيف حرصهم على اغتنام الزمان وتقييد الفوائد رأيتَ عجبًا!.

* فهذا الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ (جَبَلُ الحِفْظ) يستيقظ مراتٍ كثيرة في الليل ليُقَيِّد الفوائد، قال راويته الفِرَبري: «كنت مع محمد بن إسماعيل بمنزله ذات ليلةٍ، فأحصيتُ عليه أنه قام وأسْرَجَ يستذكر أشياءَ يُعلِّقها في ليلةٍ ثمان عشرة مرَّة»[1].

* وهذا الإمام الشافعي (٢٠٤) يحكي عنه صاحبُه الحُمَيْديُّ ـ لمَّا كانا بمصر ـ أنه كان يخرج في بعض الليالي فإذا مصباح منزل الشافعي مُسْرج، فيصعد إليه «فإذا قِرْطاس ودَوَاة، فأقول: مَهْ يا أبا عبدالله! فيقول: تفكّرت في معنى حديث ـ أو في مسألة ـ فخِفْت أن يذهب عَلَيَّ، فأمرت بالمصباح وكتبته»[2].

* وقد مرَّ معنا خبر أبي الوفاء بن عقيل الحنبلي، فلا نعيدُه[3].

* وذكر ابنُ الأبَّار الحافظُ في «معجم أصحاب الصدفي»[4] في ترجمة العلاَّمة أبي القاسم ابن ورد التميمي (٥٤٠) أنه كان لا يُؤْتىٰ بكتابٍ إلا نظر أعلاه وأسفله، فإن وجد فيه فائدة نقلَها في أوراق عنده، حتى جمع من ذلك موضوعًا.

---

(١) «السير»: (١٢/ ٤٠٤).

(٢) «آداب الشافعي ومناقبه»: (ص/ ٤٤ ـ ٤٥) لابن أبي حاتم.

(٣) (ص/ ٤٠).

(٤) (ص/ ٢٥).

* وذكر الحافظ ابن حجر في ترجمة الإمام الزركشي (٧٩٤) صاحب «البحر المحيط» وغيره[١] أنه كان يتردد إلى سوق الكتب، فإذا حضره أخَذَ يُطَالع في حانوت الكتبي طول نهاره، ومعه ظهور أوراق يُعلِّق فيها ما يعجبه، ثم يرجع فينقله إلى تصانيفه.

وقد دوّن كثير من العلماء هذه الفوائد في كتب مفردة، مثل: «الفنون» لابن عقيل وهو من أضخم الكتب، و«الفوائد العونية» للوزير ابن هبيرة، و«صيد الخاطر» وغيره لابن الجوزي، و«قيد الأوابد» في (٤٠٠ مجلد) للدغولي، و«عيون الفوائد» لابن النجار في (٦ أسفار)، و«بدائع الفوائد» و«الفوائد» لابن القيم، و«التذكرة» للكندي في (٥٠ مجلدًا)، و«مجمع الفوائد ومنبع الفرائد» للمقريزي كالتذكرة له في نحو (١٠٠ مجلد)[٢] وتذكرة السيوطي في أنواع الفنون في ٥٠ مجلدًا، وتذكرة الصفدي في مجلدات كثيرة أكثر من (٣٠) منها أجزاء مخطوطة. وغيرها كثير.

ولا يتوهَّمنَّ أحدٌ لاجل ثنائنا وإشادتنا بتقييد العلم وتدوين الفوائد، أنَّا نُقلِّل من أهمية الحفظ ونحط من شأنه، كلاَّ؛ إذ لا تعارض بينهما بحمد الله تعالى، وهل من ذكرنا خبرهم ـ قريبًا ـ في حِرصهم على التقييد... إلا من أكابر الحفَّاظ!!.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

* * *

---

(١) «الدرر الكامنة»: (٣/ ٣٩٧ ـ ٣٩٨).

(٢) وقيل (٨٠).

الفهارس



فهرس المصادر

ـ أ ـ

١ ـ آداب الشافعي ومناقبه، لابن أبي حاتم الرازي، تحقيق عبدالغني عبدالخالق، دار الكتب العلمية.
٢ ـ أدب الدنيا والدين، للماوردي، تحقيق شريف سكر ورفيقه، دار إحياء العلوم.
٣ ـ الأدب المفرد، للبخاري، دار الكتب العلمية.
٤ ـ إرشاد الأريب في معرفة الأديب، لياقوت الحموي، تحقيق مرجليوث، دار إحياء التراث العربي.
٥ ـ أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، للمقّري، طبع المغرب.
٦ ـ إشارة التعيين في طبقات النحاة واللغويين، لعبدالباقي اليماني، تحقيق عبدالمجيد دياب، مؤسسة الملك فيصل الخيرية.
٧ ـ أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن، للأمين الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية.
٨ ـ الأعلام، للزركلي، دار العلم للملايين.
٩ ـ إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم، دار الجيل.
١٠ ـ الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ، للسخاوي، تحقيق فرانز روزنثال، مؤسسة الرسالة.
١١ ـ أعيان العصر وأعوان النصر، للصفدي، تحقيق علي أبو زيد ورفاقه، دار الفكر ومركز جمعة الماجد.
١٢ ـ إكمال المعلم بفوائد مسلم، للقاضي عياض، تحقيق يحيى إسماعيل، دار الوفاء.
١٣ ـ أنا، للعقاد، المكتبة العصرية.
١٤ ـ إنباء الغمر بأبناء العمر، للحافظ ابن حجر، دائرة المعارف العثمانية.

١٥ ـ إنباه الرواة على أنباء النحاة، للوزير القِفطي، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي ومؤسسة الكتب الثقافية.
١٦ ـ الأنساب، للسمعاني، دار الجنان.

ـ ب ـ

١٧ ـ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، للشوكاني، مكتبة ابن تيمية.
١٨ ـ بستان العارفين، للنووي، دار البشائر.
١٩ ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، للسيوطي، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية.
٢٠ ـ البيان والتبيُّن، للجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، مصورة دار الفكر.

ـ ت ـ

٢١ ـ تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي، مصورة عن طبعة بولاق.
٢٢ ـ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، للذهبي، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي.
٢٣ ـ تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية.
٢٤ ـ تاريخ جرجان، للسهمي، تحقيق عبدالرحمن المعلمي، دار الجيل.
٢٥ ـ تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، للجبرتي، دار الجيل.
٢٦ ـ التبرك أنواعه وأحكامه، للجديع، مكتبة الرشد.
٢٧ ـ تبيين كذب المفتري على أبي الحسن الأشعري، لابن عساكر، دار الكتاب العربي.
٢٨ ـ التحبير في المعجم الكبير، للسمعاني، تحقيق منيرة ناجي سالم، العراق.
٢٩ ـ تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف، للمزي، تحقيق عبدالصمد شرف الدين، المكتب الإسلامي والدار القيمة.
٣٠ ـ تذكرة الحفاظ، للذهبي، تحقيق المعلمي، دار إحياء التراث العربي.

٣١ ـ التراتيب الإدارية، لعبدالحي الكتاني، دار الكتاب العربي.
٣٢ ـ ترتيب المدارك لمعرفة أعلام مذهب مالك، للقاضي عياض، وزارة الأوقاف بالمغرب.
٣٣ ـ تغريب الألقاب العلمية، لبكر أبو زيد، دار الراية.
٣٤ ـ تفسير الخازن، للخازن، دار الفكر.
٣٥ ـ تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، دار المعرفة.
٣٦ ـ تقييد العلم، للخطيب البغدادي، تحقيق يوسف العش، دار الوعي حلب.
٣٧ ـ التقييد لرواة السنن والمسانيد، لابن نقطة، مصورة عن الهندية.
٣٨ ـ التكملة لكتاب الصلة، لابن الأبَّار، دار المعرفة بالمغرب.
٣٩ ـ التكملة لوَفَيات النقلة، للمنذري، تحقيق بشار عواد، مؤسسة الرسالة.
٤٠ ـ تهذيب التهذيب، لابن حجر، دائرة المعارف العثمانية.
٤١ ـ توثيق النصوص وضبطها، لموفّق بن عبدالقادر، المكتبة المكية.
٤٢ ـ ابن تيميَّة السَّلفي، لمحمد خليل الهراس، دار الكتب العلمية.

ـ جـ ـ

٤٣ ـ جامع بيان العلم وفضله، لابن عبدالبر، تحقيق الزُّهيري، دار ابن الجوزي.
٤٤ ـ جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي، تحقيق شعيب الأرناووط ورفيقه، مؤسسة الرسالة.
٤٥ ـ الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية، لعلي العمران، ومحمد عزير شمس، دار عالم الفوائد.
٤٦ ـ الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم، دائرة المعارف العثمانية.
٤٧ ـ الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي، للنهرواني، تحقيق الخولي وإحسان عباس، عالم الكتب.
٤٨ ـ جواهر العقدين في فضل الشرفين، للسمهودي، طبع العراق.
٤٩ ـ الجواهر المضيَّة في طبقات الحنفية، للقرشي، تحقيق الحلو، مؤسسة الرسالة.

٥٠ ـ الجواهر والدرر في ترجمة الحافظ ابن حجر، للسخاوي، طبعة مصر، وطبعة دار ابن حزم تحقيق إبراهيم باجس.

ـ ح ـ

٥١ ـ الحافظ ابن حجر أمير المؤمنين في الحديث، لعبدالستار الشيخ، دار القلم.
٥٢ ـ الحث على طلب العلم والاجتهاد في جَمْعه، للعسكري، المكتب الإسلامي.
٥٣ ـ حلية طالب العلم، لبكر أبو زيد، دار الراية.
٥٤ ـ الحيوان، للجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، البابي الحلبي.

ـ خ ـ

٥٥ ـ خزائن الكتب العربية في الخافقين، لفيليب دي طرازي، طبع لبنان.
٥٦ ـ خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، للمحبي، دار الكتاب الإسلامي.

ـ د ـ

٥٧ ـ الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، لابن حجر، تحقيق كرنكو.
٥٨ ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للسيوطي، دار الكتب العلمية.
٥٩ ـ درة الحِجَال في غرة أسماء الرجال، للمكناسي، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور.

ـ ذ ـ

٦٠ ـ الذكريات، لعلي الطنطاوي، دار المنارة بجدة.
٦١ ـ الذهبي ومنهجه في تاريخ الإسلام، لبشار عواد، مصر.
٦٢ ـ ذيل تاريخ الإسلام، للذهبي، مخطوط نسخة ليدن.
٦٣ ـ الذيل التام على دول الإسلام، للسخاوي، تحقيق إسماعيل مروة، دار العروبة الكويت.

٦٤ ـ ذيل التقييد لرواة السنن والمسانيد، للفاسي، تحقيق محمد صالح المراد، جامعة أم القرى.
٦٥ ـ ذيل الروضتين في أخبار الدولتين، لأبي شامة المقدسي، دار الجيل.
٦٦ ـ الذيل على طبقات الحنابلة، لابن رجب، تحقيق الفقي، دار المعرفة.

ـ ر ـ

٦٧ ـ رجال من التاريخ، لعلي الطنطاوي، دار المنارة جدة.
٦٨ ـ الرحلة في طلب الحديث، للخطيب البغدادي، تحقيق نور الدين عتر، دمشق.
٦٩ ـ رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، لمحمود شاكر، دار الخانجي.
٧٠ ـ رسالة مداواة النفوس، لابن حزم، ضمن رسائل ابن حزم، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية.
٧١ ـ رسالة مراتب العلوم، لابن حزم، ضمن رسائل ابن حزم، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية.
٧٢ ـ روح المعاني، للآلوسي، دار الفكر.
٧٣ ـ روضة المحبين، لابن القيم، تحقيق أحمد عبيد، دار الكتب العلمية.

ـ ز ـ

٧٤ ـ الزهد، للإمام أحمد، دار الكتب العلمية.

ـ س ـ

٧٥ ـ السلوك في طبقات العلماء والملوك، للجندي، تحقيق محمد الأكوع، مكتبة الإرشاد.
٧٦ ـ سنن الدارمي، للدارمي، تحقيق الازمرلي، دار الكتاب العربي.
٧٧ ـ السياق لتاريخ نيسابور، لعبدالغافر الفارسي (مخطوط).
٧٨ ـ سير أعلام النبلاء، للذهبي، مؤسسة الرسالة.

- ش -

٧٩ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد، دار الفكر.
٨٠ ـ شرح صحيح مسلم، للنووي، المطبعة المصرية.
٨١ ـ الشعر والشعراء، لابن قتيبة، دار الكتب العلمية.
٨٢ ـ شواهد الإعجاز القرآني، لعودة أبو عودة، دار عمار والبيارق.

- ص -

٨٣ ـ صحيح البخاري، للبخاري، مع الفتح.
٨٤ ـ صحيح مسلم، لمسلم، البابي الحلبي.
٨٥ ـ الصلة، لابن بشكوال، تحقيق الحسيني، دار الخانجي.
٨٦ ـ صيد الخاطر، لابن الجوزي، طبعة دار الكتاب العربي، وطبعة دار اليقين تحقيق عبدالرحمن البر.

- ض -

٨٧ ـ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، للسخاوي، طبعة القدسي.

- ط -

٨٨ ـ الطالع السعيد، للأدفوي، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
٨٩ ـ طبقات الحنابلة، لابن أبي يعلى، تحقيق حامد الفقي، دار المعرفة.
٩٠ ـ الطبقات السنية في طبقات الحنفية، للتميمي، تحقيق الحلو، دار الرفاعي.
٩١ ـ طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي، تحقيق الطناحي والحلو، البابي الحلبي.
٩٢ ـ طبقات علماء أفريقية وتونس، لأبي العرب التميمي، تحقيق علي الشابي، ونعيم الجافي، الدار التونسية.
٩٣ ـ طبقات فقهاء اليمن، للجعدي، تحقيق فؤاد السيد، دار القلم.
٩٤ ـ طبقات المفسرين، للداوودي، تحقيق علي محمد عمر.

- ع -

٩٥ ـ العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، لابن عبدالهادي، تصوير مكتبة المعارف الطائف.
٩٦ ـ العلل المتناهية في الأحاديث الواهية، لابن الجوزي، دار الكتب العلمية.
٩٧ ـ العلم، لأبي خيثمة، تحقيق الألباني، دار الأرقم.
٩٨ ـ عمدة القاري بشرح صحيح البخاري، للعيني، المنيرية.
٩٩ ـ عنوان الدراية، للغبريني، تحقيق عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة.
١٠٠ ـ عنوان الزمان في تراجم الشيوخ والأقران، للبِقاعي، مخطوط نسخة كوبريلي.

- غ -

١٠١ ـ الغنية، للقاضي عياض، تحقيق محمد بن عبدالكريم، الدار العربية للكتاب.

ـ ف ـ

١٠٢ ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار الريان للتراث.
١٠٣ ـ فضل علم السلف على علم الخلف، لابن رجب، تحقيق العجمي، دار البشائر.
١٠٤ ـ الفضل المبين في شرح الأربعين، للقاسمي، تحقيق البيطار، دار النفائس.
١٠٥ ـ الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، للحجوي، دار الكتب العلمية.
١٠٦ ـ الفلاكة والمفلوكون، للدَّلجي، دار الكتب العلمية.
١٠٧ ـ الفنون الصغرى، لأبي عبدالرحمن بن عقيل الظاهري، النادي الأدبي بالطائف.
١٠٨ ـ الفوائد، لابن القيم، مكتبة دار البيان.
١٠٩ ـ فوائد تمام، لتمام الرازي، تحقيق حمدي السلفي، مكتبة الرشد.
١١٠ ـ الفهرس الشامل للتراث العربي المخطوط، صدر عن جامعة آل البيت بالأردن.

١١١ ـ فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، للكتاني، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب.

ـ ق ـ

١١٢ ـ القبس الحاوي لدرر ضوء السخاوي، للشماعي، تحقيق إسماعيل مروة، دار صادر.

١١٣ ـ قطف الثمر في رفع أسانيد المصنفات في الفنون والأثر، للفُلَّاني، تحقيق عامر صبري، دار الشروق جدة.

١١٤ ـ قواعد التحديث، للقاسمي، دار الكتب العلمية.

ـ ك ـ

١١٥ ـ الكتاب في الحضارة الإسلامية، ليحيى الجبوري، دار الغرب.

١١٦ ـ الكشاف، للزمخشري، دار المعرفة.

١١٧ ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة، دار الكتب العلمية.

١١٨ ـ الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة، للغزي، دار الكتب العلمية.

ـ ل ـ

١١٩ ـ لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ، لابن فهد، دار إحياء التراث العربي.

١٢٠ ـ لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات، لعبدالستار الحلوجي، دار الثقافة.

ـ م ـ

١٢١ ـ مجلة المجمع العلمي الهندي، الهند.

١٢٢ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للهيثمي، مؤسسة المعارف.

١٢٣ ـ المجمع المؤسِّس للمعجم المفهرس، لابن حجر، تحقيق يوسف المرعشلي، دار المعرفة.

١٢٤ ـ المجموع، للنووي، دار الفكر.

١٢٥ ـ محاسن التأويل، للقاسمي، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، دار الفكر.
١٢٦ ـ مختصر طبقات علماء الحديث، لابن عبدالهادي، تحقيق إبراهيم الزيبق ورفيقه، مؤسسة الرسالة.
١٢٧ ـ المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل، لابن بدران، تحقيق التركي، مؤسسة الرسالة.
١٢٨ ـ المدخل المفصل إلى فقه الإمام أحمد بن حنبل، لبكر أبو زيد، دار العاصمة.
١٢٩ ـ المرقبة العُلْيا فيمن يستحق القضاء والفتيا، لأبي الحسن المالقي، المكتب التجاري للطباعة.
١٣٠ ـ مسائل في طلب العلم وأقسامه، للذهبي، ضمن ست رسائل للذهبي تحقيق جاسم الدوسري، الدار السلفية.
١٣١ ـ المستدرك على الصحيحين، للحاكم، دائرة المعارف العثمانية.
١٣٢ ـ المسند، للإمام أحمد، المكتب الإسلامي.
١٣٣ ـ مسند الشاميين، للطبراني، تحقيق حمدي السلفي، مؤسسة الرسالة.
١٣٤ ـ مشيخة أبي المواهب الحنبلي، لأبي المواهب، تحقيق محمد مطيع الحافظ، دار الفكر.
١٣٥ ـ المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، لابن حجر، دار الوطن.
١٣٦ ـ معجم أصحاب أبي علي الصدفي، لابن الأبار، دار صادر.
١٣٧ ـ المعجم الأوسط، للطبراني، تحقيق الطحان، مكتبة المعارف الرياض.
١٣٨ ـ معجم البلدان، لياقوت الحموي، دار إحياء التراث.
١٣٩ ـ معجم الشيوخ، للذهبي، تحقيق محمد الهيلة، مكتبة الصديق.
١٤٠ ـ المعجم الكبير، للطبراني، تحقيق حمدي السلفي، العراق.
١٤١ ـ معرفة القراء الكبار، للذهبي، تحقيق أحمد خان، مؤسسة الملك فيصل الخيرية.
١٤٢ ـ مفتاح دار السعادة، لابن القيم، تحقيق علي عبدالحميد، دار ابن عفان.
١٤٣ ـ المفهم على صحيح مسلم، لأبي العباس القرطبي، دار ابن كثير، والكلم الطيب.

١٤٤ ـ المقاصد الحسنة في الأحاديث المشتهرة على الألسنة للسخاوي، دار الهجرة بيروت.
١٤٥ ـ المقفى الكبير، للمقريزي، تحقيق اليعلاوي، دار الغرب.
١٤٦ ـ ملء العيبة بما جُمع بطول الغَيْبة، لابن رُشَيْد الفهري، تحقيق محمد بالخوجة، دار الغرب.
١٤٧ ـ ملحق البدر الطالع، لمحمد زبارة، مكتبة ابن تيمية.
١٤٨ ـ المنتظم في أخبار الملوك والأُمم، لابن الجوزي، دار الكتب العلمية.
١٤٩ ـ منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيع والقدرية، لابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، جامعة الإمام.
١٥٠ ـ الموافقات، للشاطبي، تحقيق مشهور حسن سلمان، دار ابن عفان.

ـ ن ـ

١٥١ ـ نظم العقيان في أعيان الأعيان، للسيوطي، المكتبة العلمية.

ـ هـ ـ

١٥٢ ـ هجر العلم ومعاقله في اليمن، للقاضي إسماعيل الأكوع، دار الفكر.

ـ و ـ

١٥٣ ـ الوافي بالوفيات، للصفدي، نشر جمعية المستشرقين.
١٥٤ ـ الوفيات، لابن رافع السلامي، تحقيق صالح مهدي عباس ورفيقه، مؤسسة الرسالة.
١٥٥ ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار الفكر.

❊ ❊ ❊

فهرس الموضوعات والفوائد

(١) هذا الرمز يعني أن الفائدة في الحاشية.

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الفصل الثاني:

الموضوع	الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع	الصفحة

الفصل الرابع:

في تكْرار قراءة الكتاب الواحد المرات الكثيرة

الفصل الخامس:

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

❊ ❊ ❊